ن/03 - 795

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

معهد الثقافة الشعبية
رقم الجرد 1057
تاريخ الوصول
رقم الترتيب
ATT/1068/09

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم : الثقافة الشعبية

شعبة : الفنون الشعبية

19 DEC 2010
AR:36

مكتبة علم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

الموضوع

الصناعة الجلدية بين الاندثار والتفعيل في تلمسان

رسالة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب :

شوقي بن عيسى

إشراف :

د. محمد سعيدي

السنة الجامعية : 2002 - 2003م

إهداء

إلى أعزّ بشر في الوجود، إلى نبعا الحنان الفيّاض، إلى مَن فتح لي طريق العلم والتعلّم : إليكَ أبي، إليكِ أمّي.

إلى زوجْتي التي تحمّلت عبء هذا البحث وَ وفّرت لي كلّ الظروف لأنجزه، فكانت خيْر مُعين.

إلى ولديَّ : محمّد أرسلان وَ شيراز سلسبيل

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى كلّ مَن قرأ هذا البحث فنَصَحَ أو نقد أو وجّه.

إليكم جميعا، أهدي هذا العمل، ثمرة جهدي.

المقدّمة

تعدُّ الصناعات التقليدية جزءا هامّا من الثقافة المادية في تراثنا الشعبي، ولعلّها اكتسبت هذه الأهمية من كونها لصيقة بكل مَا لَهُ علاقة بأوجه حياتنا المتنوّعة والمتعددة على مرّ العصور. وانطلاقا من هذه الفكرة، فهي ترتبط بالضّرورة ارتباطا وثيقا بتاريخ الإنسانية.

ومماّ لاشكّ فيه أنّ الإنسان الأول استطاع منذ ظهوره على وجه المعمورة أن يصنع لنفسه أدوات ومعدّات بسيطة – شكّلها من مواد مختلفة – تعكس بحقّ بساطة معيشته، فقد كَان يعتمد بالدرجة الأولى على كلّ ما يحيط به في بيئته الطبيعية كالحجر وَالطين وَالعظام وَالجلد وَغيرها، مستندا في ذلك على قواه العضلية وَمهاراته الفنية، حيث تمكّن مع تعاقب الأزمنة من إشباع رغباته وَميولاته المختلفة وَإرضاء متطلّباته المادية، ومن ثمّ استطاع أن يُقوّم حياته وَيُؤمّن مسيرته التاريخية، وهو ما يجعلنا نسلّم بحتمية الإنسان كَمبدع حرفي.

وتبعا لما تقدّم، يمكن القول بأنّ الصناعات التقليدية – على عكس الكثير من المهن الأخرى– تُعدّ أعرق وَأقدم الصناعات تاريخيا، فقد أثّرت ببصماتها الواضحة على كل الحضارات التي عرفها الإنسان عبر العصور المختلفة وَعبر الأوطان وَالأماكن. فالشعوب القديمة والحديثة قد تركت عدّة أمثلة من منتجاتها تـنفرد بها وَ تميّزها، فمنهم من اشتهر بالنسيج أو الفخار وَمنهم مَن انفرد بالنقش

على الخشب أو النحاس وَ منهم من اشتهر بصناعة الجلود وَ ما يرتبط بها وَهكذا.

وَعلى الرغم ممّا لهذه الحرف وَالصناعات من أهمية تاريخية وَ فنيّة وَاجتماعية وَاقتصادية باعتبارها تعكس البعد الحضاري لكثير من الشعوب، فإنّها لم تلق القدر الكافي من العناية وَ لَمْ تنلْ حظّها من البحث وَالدراسة وَالتّحليل، وَ قلّما وجدنا من الدّارسين – و خاصة الجزائريين – مَن اهتمّ بها.

فلمّا أتيحت لي فرصة البحث، كان من الطبيعي أن أختار موضوعا خصبا لا تزال مجالات البحث فيه واسعة، وَما كان حُلمي يتحقّق لَوْلاَ إقبالي على دراسة إحدى فروع الفنون الشعبية وَهي الحرف وَالصناعات التقليدية، فوجدت فيه ما يلبّي رغبتي علىٰ الأقل في الكشف عن جانب منه؛ فاستقرّ اختياري، بعد تفكير طويل وإمعان نظر، على دراسة الصناعة الجلدية، فَوَسَمْت بحثي بالعنوان :

" الصناعة الجلدية بين الاندثار وَ التفعيل في تلمسان ".

إنّ تلمسان إحدى المدن الجزائرية المعروفة بفنّها وتاريخها، وقد استطاعت بفضلهما أن تتبوّأ – قديما – مكانة مرموقة بين مدن العالم. قال بياس (Piesse) : " لقد كانت تلمسان في وقت من الأوقات – حيث كانت عبقرية الدول الأوروبية في سبات عميق – إحدى المدن الأكثر تمدّنا والأكثر تحضرا في العالم "[1].

واستطاعت فوق هذا أن تستقطب عددا كبيرا من الأنشطة خاصة تلك

1 Itinéraire de l'Algérie : Louis PIESSE, Paris, Librairie HACHETTE, 1862, P 238-239.

المرتبطة بالحرف وَالصناعات التقليدية، الشيء الذي أهّلهـا – في زمن ليس بعيدا – لأنّ تكون مركزا تجاريا وَاقتصاديا يقصده الناس من كلّ الجهات. فَمِن أهمّ ما عُرفت به هذه المدينة : صناعة النسيج وَصناعة الزرابي وصناعة النحاس والفخار، وَصناعة الجلود وَالدباغة وَالصباغة وَغيرها، فكانت هذه الحرف موردا أساسا للرزق، ثمّ مصدرا لتجهيز بيوت هؤلاء الحرفيين والأهالي بكل ما تصنعه أياديهـــم.

وَمازالت تلمسان تحتفظ – إلى يومنا هذا – بأسماء أماكن و دروب وَ أزقة و أسواق تُعرف بنوع الحرفة التي كانت قائمة بها، أذكر على سبيل المثال السوق التي تهمّنا وهي سوق منشر الجلد حيث كان ينشط بها ثلاثة طوائف من الصناع وَهم : الدباغون و الخرّازون و السرّاجون.

تحديد الموضوع وَجغرافيته :

فالموضوع الذي نحن بصدد بَحثِه يقوم على دراسة واقع الصناعة الجلدية بمدينة تلمسان مع ذكر المراحل المختلفة لمعالجة مادّة الجلد وكيفية التحكّم فيها وطرق جلبها وَدباغتها وَصناعة منتجاتها مع التركيز على أسباب ركود هذه الصناعة وَتدهور المهارات التي كانت، مدى عصور كاملة، تَسترعي الانتباه بما كانت تُنتجه من تُحف فنّية وَآثار جمالية عالية.

والسبب الجوهري في تحديد المكان الجغرافي لهذا الموضوع يرجع أساسا إلى أمرين :

1- إنّ هذه الدارسة أكّاديمية تتعلّق بإعداد رسالة ماجستير، وهي تشترط التحديد الزمني وَالمكاني، حتّى يستطيع الباحث أنْ يتعمّق لاحقا في بحوث أخرى شاملة وَدقيقة كإعداد أطروحة الدكتوراه مثلا.

2- إنّني ابن المدينة، وهو الأمر الذي يجبرني أكثر من غيري على اتّخاذ هذه المدينة نموذجا للدراسة.

دواعي اختيار الموضوع :

لا شكّ أنّ لكلّ موضوع مطروح للدراسة والبحث دواعٍ وأسبابا تدفع الباحث إليه، ولا ريب أنّ اختيار موضوع ما أمر ليس يسيرا على كثير من الباحثين وَخاصة الطلبة القادمون على إعداد مثل هذه الأبحاث وَالدّراسات التي تكون في بعض الأحيان أوّل تجربة كتابية يخوضها الطالب في حياته الدراسية، ولهذا لابدّ أن يكون هذا الاختيار وليد تفكير طويل واقتناع متين.

وَ أمّا اختياري لهذا الموضوع، فكان نتيجة أسباب عديدة دفعتني إلـــى الخوض فيه وَ ألخصّها في النقاط التالية :

– دافع شخصي محض، إذْ أنّ رغبتي في دراسة هذا الموضوع نابعة من محبّتي لكل مَا لَهُ صلة بالتراث الشعبي، وَالصناعة الجلدية على وجه الخصوص جزء من الموروث الشعبي المادي الذي حظيت به مدينة تلمسان.

– رِضا بعض أساتذتي على هذا الموضوع لما له من أهمّية وَقِيمة في واقع الحياة الاجتماعية وَالاقتصادية وَالثقافية.

– ثمّ إنّه على الرغم من أنّ الدولة قد أحدثت فُرصا كثيرة في العديد من المدن الجزائرية وَ في تلمسان على وجه الخصوص بغرض إنجاح قطاع الحرف والصناعات التقليدية من خلال إصدار النصوص التشريعية التي تضبطه وَ تُسيِّره وفتح مراكز ومعاهد للتكوين المهني وإقامة المعارض والتظاهرات الثقافية والملتقيات الوطنية والدولية (نذكر على سبيل المثال الملتقى الدولي للشراكة الأورومتوسطية في ميدان الحرف والصناعات التقليدية الذي انعقد في 10 مارس 2002)، على الرغم من ذلك كلّه، فإنّ الواقع يبرز عكس ذلك، فالكثير من هذه الصناعات هو في طريق الاندثار كصناعة السروج مثلا، أو قد اندثر كصناعة النحاس مثلا.

كما أنّ التغير الحتمي الذي طرأ على النمط المعيشي لعدد كبير من الحرفيين – و من بينهم حرفيو الصناعة الجلدية – جعلهم يبتعدون وَ يهجرون

صنائعهم إلى ميادين ومهن أخرى ذات دخل سريع ومَضمون، فأصبحت هذه الصناعات ضحية للطفرة التنموية التي تمر بها البلاد؛ إذْ لم يبق منها إلاّ نُتف هنا وَهناك نتذكرها فقط حينما تأتي مشاركة أصحابها في المهرجانات وَالمعارض.

– وَ أمر آخر شدّ انتباهي وَ حفّزني على أن أواصل البحث في هذا الموضوع هو عزوف بعض الطلبة – إن لم نقل كلّهم – على اقتحام مجال دراسة الفنون التطبيقية، لأنّ الكثير منهم ينظر إليها على أنّها من الفنون الصغيرة و لا تستحق أن تدرج ضمن المواضيع العلمية الأكاديمية.

من هذا المنطلق، جاء اقتناعي التام بالموضوع الذي اخترته مجالا للبحث والدراسة.

منهجية البحث :

إنّ المنهج الذي وجدته صائبا لمعالجة هذا الموضوع قام على الوصف والتحليل والتنقيب الميداني لكلّ ما له علاقة بموضوعي، فتمكّنت من رصد عدد كبير من الوثائق وَالصور، إضافة إلى اتّصالي المستمرّ بِمَن بَقِي متمسكا بهذه المهنة. وقد ساعدتني هذه الرؤية على اكتشاف بعض الحقائق وجدتها سندا لي في إنجاز هذا البحث، فتوصّلت من خلال ذلك إلى معلومات دقيقة واستبصارات جديدة أدّت بي إلى استخلاص بعض التعميمات حول هذه الصناعة مع بيان

أسباب تدهور هذه الصناعة وتقديم الحلول المواتية والضرورية لتفعيل نشاطها ودفع حركيتها. كما أنّني وجدت نفسي مجبرا إلى الرجوع إلى التاريخ الثقافي والانثروبولوجي لمدينة تلمسان لأغرِف منه ما أمكن من معلومات حتّى أتمكّن من الوقوف على حالة الصناعة الجلدية ونَموّها وتَطوّرها.

وبَهدف التحكّم في هذه المنهجية، قمت بتسطير برنامج ميداني أدرجت فيه :

- زيارة مديرية السياحة والصناعات التقليدية بتلمسان
- زيارة مركز التكوين المهني والتمهين " القرية الحرفية " تلمسان.
- زيارة مركز التكوين المهني والتمهين "مشكانة" تلمسان
- زيارة غرفة الحرف والصناعات التقليدية بتلمسان
- زيارة ما تبقى من مدبغة تلمسان المتواجدة بِحيْ أغادير.
- مساءلة بعض التجار المهتمين بالمنتوجات التقليدية والذين بقوا أوفياء لتجارتهم على الرغم من استيائهم للوضعية التي آلت إليها كثير من الصناعات التقليدية.

شرح تفصيلي لخطة البحث :

لقد فرض عليّ المنهج المعتمد الإتيان بخطة للبحث تَمثّلت في مقدّمة وتَمهيد وَ أربعة فصول وخاتمة.

- فأمّا التمهيد، فكان في البداية عبارة عن حصرٍ لمفهوم الصناعة التقليدية والحرفي، ثمّ أدرجت لمحة وجيزة عن واقع الصناعات التقليدية في بعض البلدان المجاورة لبلادنا كالمغرب الأقصى وتونس ومصر، وتطرّقت بعد ذلك إلى أهمّ ما تزخر به بلادنا من نشاطات تقليدية. والغرض من ذلك هو معرفة مدى أهمية هذه الصناعات في كلّ من هذه البلدان مقارنة بالجزائر.

- وفي آخر الفصل تطرّقت وبإيجاز إلى أهمّ الصناعات التقليدية في مدينة تلمسان من حيث تاريخها والمراحل المختلفة التي قطعتها، مع الإشارة إلى القدرات الكبرى التي تزخر بها، وهي قدرات هائلة تتميّز بالثراء والتنوّع والأصالة.

- أمّا الفصل الأوّل، فقد تناولت فيه واقع الصناعات التقليدية في تلمسان، وأحصيت فيه أهمّ النشاطات الحرفية التي كانت وراء ازدهار المدينة في وقت من الأوقات.

- والفصل الثاني خصّصته لدراسة موضوع صناعة الجلد عامّة، فركّزت فيه على مصادر اقتناء مادة الجلد وأنواعها. كما بيّنت مختلف طرق تحضير الجلد مع ذكر مراحل دباغته كبشره وتشنيبه ونقعه وإزالة اللحم منه ثمّ مرحلة الحشو وإزالة الشعر وتنظيفه مع إزالة آثار الكلس به وتطريته وتحميضه، والتنويه بمختلف موادّ الدبغ كمواد الدباغة المصنّعة والمساعدة والمركّبة والتعويضية، ثمّ

انتقلت بعد ذلك إلى صباغة الجلد مع ذكر مدى تأثير اللون في رواج المنتوج.

- وتناولت في الفصل الثالث الوضع الحالي للصناعة الجلدية في تلمسان من خلال بعض النماذج السلعية، فأحصيت أهمّ المنتوجات الجلدية التقليدية التي عرفت شهرة وازدهارا في الأوساط الشعبية مثل سروج الخيول والبلغة والمحافظ والوسادات الجلدية، كما تطرّقت أيضا للعوامل المتعدّدة التي ساعدت على ازدهار هذه الصناعة في وقت من الأوقات وكذلك الأسباب العميقة التي أثّرت سلبا على هذا الرقي فجعلتها تتقهقر شيئا فشيئا إلى أن أصبحت مهدّدة بالزوال والاندثار.

- وبحثت في الفصل الرابع الشروط الضرورية والموضوعية لدفع حركية هذه الصناعة وتفعيلها؛ إذ أن ذلك لا يتأتى إلاّ من خلال عصرنة المنتوج الجلدي والتكفّل الحقيقي بهذا القطاع من خلال توفير بعض الشروط كالتكوين والسياحة والتسويق. وفي آخر الفصل كان لزاما عليّ أن أنوّه بأهمية الصناعة الجلدية في التنمية الاقتصادية.

- وأنهيت هذا البحث بخاتمة أودعت فيها أهمّ النتائج التي توصّلت إليها، وكذا أهمّ الاقتراحات التي من شأنها تُحرّك قطاع الصناعات التقليدية.

وبناء على هذا، ارتسمت خطّة هذه الرسالة كما يلي :

1 – مقدّمة

2 – تمهيد : الصناعة التقليدية : نظرة عامة.

3– الفصل الأوّل : صناعة الجلود في تلمسان بين الصناعات التقليدية الأخرى

1– تمهيد

2– الإطار الرسمي للصناعات التقليدية في تلمسان

3– الصناعات التقليدية في تلمسان

3 – الفصل الثاني : صناعة الجلود

تمهيد

1– مادة الجلد

2– دباغة الجلد

3– صباغة الجلد

4– الفصل الثالث : الصناعة الجلدية

تمهيد

1– المنتوجات الجلدية التقليدية.

2– عوامل ازدهارها

3– أسباب ركودها.

5– الفصل الرابع : تفعيل الصناعة الجلدية.

تمهيد

1– عصرنة المنتوج الجلدي.

2– التكفّل الحقيقي بقطاع الصناعة التقليدية .

3– الصناعة الجلدية ودورها في التنمية الاقتصادية.

خـاتمة

قائمة المصادر والمراجع :

لعلّ ما أدهشني وأنا أبحث عن المصادر والمراجع التي تناولت بحثي هو أنّني لم أعثر على مرجع واحد له صلة مباشرة بموضوعي. فأنا لا أنكر أنّني سمعت بعناوين بعض الكتب التي اهتمّت بالصناعة الجلدية ولكنّني لم أتمكّن من الحصول عليها، فهي غير متوفّرة بمكتبات المدينة وحتى خارجها. ومن بينها :

- الجلود : لمحمد عبد الله زغول
- صناعة الجلود : لنفس المؤلّف.
- Cuir et peau : Bernard J, série « Que-sais-je ? ».

أمّا المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي كانت لي سندا في إنجاز هذا البحث على الرغم من عدم تطرّقها للموضوع بصورة مباشرة، فهي كثيرة، أذكر منها :

المصادر والمراجع العربية :

- باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان : شاوش محمد بن رمضان
- تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- دباغة الجلود و صناعة المواد المتعلقة بها : ترجمة وإعداد جعفر طاهر الهاشمي، دار الصفدي، 1998.

- الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي : واضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ - 1981م.

- المقدّمة : عبْد الرحمان بن خلدون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط3، مجلد1، 1967.

المراجع الأجنبية :

1- La Composition décorative: Henri MAYEUX; A. QUANTIN Editeur; 1884.

2- Les tanneurs de Marrekech: mémoires du C.R.A.P.E. XIX, Imp. Zaban, Alger (SD)

3- Tlemcen, Ancienne capitale du royaume de ce nom (souvenirs d'un voyage) L'ABBE Barges, Paris, 18

4- Tlemcen au passé rapproché 1937-1962 : Editions Jacques GANDINI, Avril 1997.

5- Tlemcen au passé retrouvé: Louis ABADI, Jacques GANDINI, 1994.

وعلى العموم، فإنّ هذا العمل هو مجرّد لَبنة صغيرة تُضاف إلى صرح البحث العلمي، وآمل أن يكون بادرة خيْر لدراسات لاحقة في مجال الفنون التطبيقية.

وفي الأخير، لا يسعني إلاّ أن أتقدّم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور سعيدي محمّد على قبوله التلقائي للإشراف على هذه الرسالة، فكان لي

خير عوْن طيلة مدة إنجازها، وكذلك إلى الأساتذة المناقشين الذين لابدّ أنّهم سيَنقدون هذا العمل نقدًا بنّاءا يُصلِح كثيرا من شأنه.

كما أوجّه شكري الجزيل لكلّ أساتذتي الذين تظافروا على تلقيني العلوم والمعارف التي سمحت لي بأن أخوض في غمار مثل هذه البحوث. ولا أنسى أخيرا أن أشكر كلّ مَن مدّ لي يد العون من إداريين وحرفيين وأصدقاء.

شوقي بن عيسى

قسنطينة في 15 ماي 2002

تمهيد

الصناعات التقليدية

– نظرة عامة –

الصناعة التقليدية :

تُعــدُّ الصناعة التقليدية جزءا ذو أهمية كبيرة من الثقافة الفنية المادية في تراثنا الشعبي، ولعلّها اكتسبت هذه الأهمية لارتباطها الأزلي بمختلف أوجه حياتنا المتنوّعة والمتعددة. كما أنّها تعدّ – وعلى كل عكس المهن الأخرى- من الصناعات العريقة والقديمة التي مارسها الإنسان؛ إذ أنّها أثّرت ببَصماتها الواضحة على كل الحضارات التي عرفها الإنسان عبر العصور المختلفة وعبر الأوطان والأماكن.

ولعلّ الظروف الطبيعية القاسية التي عاشها الإنسان والحاجة الملحة للدفاع عن نفسه وكذا بحثُه الدائم عن ما يسدّ رمقه، جعله يهتدي – مع مرور الزمن – إلى اكتشاف ذكاء يَدَيْه ومَهاراته الفنية وقدراته الإبداعية في ممارسة الكثير من الصناعات، فتمكّن من خلال استغلاله الأمثل لخامات البيئة من ابتكار أدوات جديدة ساعدته على تحسين وتطوير تقنيات التصنيع، التي مكّنته من صُنع كلّ الوسائل الكفيلة بإشباع حاجاته ورَغباته وَ أنْ يُحقّق ما يصبو إليه ويَتوخّاه.

ومِن هذا المنطلق، يتبيّن أن الإنسان كان حرفيّا بطبعه، بل كان مُحتَّم عليه أن يكون حرفيا، حيث أنّه تمكّن في أولى مراحل حياته أن يُزاوج بين قابلية الفعل والعمل وتَصوّر الذكاء الخارق، فقد انشغل في البداية بالبحث عن مصادر ضمان

العيش وَالشروط الضرورية لتحسين نمط حياته، وَذلك مُزاوجةً بين ما كان يلاحظه في محيطه وَ بيئته وَما كان يفكّر فيه وَ بين ما كان يصنعه بيده من أدوات تساعده على التخفيف من شقاء الأعمال التي ما فتئت تزداد – يوما بعد يوم – تعقيدا وَصعوبة نتيجة للتحوّلات وَالتطوّرات التي طرأت على مختلف مجالات حياته والتي غيّرت بالضرورة من أسلوب معيشته.

ومن هذا المنطلق، اتّخذها الكثير من الباحثين معيارا يقيسون بها ازدهار وَ تخلّف الأمم والشعوب، فابن خلدون قد ربطها – أي الصناعات التقليدية – بمعيار التطوّر العمراني، إذّ أنّه يقول في مقدّمته :" وعلى مقدار عمران البلدان تكون جودة الصنائع "[1].

إنّ الصنائع عند ابن خلدون نوْعان، بسيطة وَمركّبة. أمّا البسيط منها يختص بالضروريات وَهُوَ من ميزة العمران البدوي، فهو الذي كتَب قائلا :" لا يحتاج – أي العمران البدوي – من الصنائع إلاّ البسيط، خاصة المستعمل في الضرورات من نجار أو حدّاد أو خياط أو جزار أو حائك "[2]. وأمّا المركّب منها فيختص بالكماليات، وهي من ميزة العمران الحضري، يضيف قائلا:" وإذا زخر

---

1 المقدّمة : تاريخ العلامة ابن خلدون– كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذي السلطان الأكبر، الدار التونسية للنشر/المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، ص483.

2 المصدر نفسه، ص 483

العمران وَطُلبت فيه الكمالات، كان من جملتها التأنّق في الصنائع واستجادتها، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها، ممّا تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من خراز[1] وَدبّاغ وجزّار وصائغ وأمثال ذلك "[2].

والملفت للانتباه أنّ للصناعات التقليدية تعاريف عديدة تختلف باختلاف التوجّه العلمي لأصحابها، إلاّ أنّها متقاربة في محتواها؛ فهي تتفّق كلّها حول طبيعة هذه الصناعة من حيث نشأتها باعتبارها إرث تركه السلف لأبنائه وَأحفاده، أو من حيث وظيفتها التي تظهر من خلال مُمَارستها من طرف الحرفيين الذين مَا زالوا متمسكين بِصنعتهم على الرغم من التهميش الذي يعانون منه، فَهُم الذين يعملون على الحفاظ على ثقافتنا وَأصالتنا.

فهاهو عبد القادر حليمي يعرّف الصناعة التقليدية على أنّها تلك الصناعات المحلية الموروثة عن الأجداد، التي تقام في الورش الصغيرة، وتعتمد في غالب الأحيان على القوة العضلية، ولا تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة ولا إلى شركات لتمويلها، مثل صناعة الفخار والزرابي والسجاد والحبال وَالحصر وَبعض الأدوات المنزلية كالملاعق الخشبية والقدور وأدوات الزينة المحلية[3].

1 الخرّاز : الإسكافي

2 المقدّمة : تاريخ العلامة ابن خلدون، ص 483.

3 ينظر جغرافية الجزائر : عبد القادر حليمي، مطبعة الإنشاء، دمشق، ط2، 1967، ص 279.

ولكون الصناعات التقليدية موروثا شعبيا، فما من شكّ أنّها ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ الإنسانية؛ بل إنّها من طبيعة هذا الإنسان؛ وقد عبّر محمد حسين جودي عن هذه الفكرة بقوله :" والأشغال اليدوية[1] نشاط إنساني متأصل في طبيعة الإنسان منذ القدم ويعتبر نشوؤها عنده منذ بداية صُنعه نماذج فنية استخدمها للسيطرة على وسائل الطبيعة "[2].

وحتّى لا يكون هناك التباس في جملة التعاريف التي قد يصادفها القارئ ولِمَا لا الحرفي، قامت الهيئة المشرفة على قطاع الصناعة التقليدية في الجزائر بإصدار مَجْمَعٍ يضمّ نصوصا تشريعية وتنظيمية تُسيّر هذا القطاع، وقد عرّفها هذا المجمع على أنّها :" كل نشاط إنتاجٍ أو إبداعٍ أو ترميمٍ فنّي أو صيانة أو تصليح أو أداء خدمة يطغى عليها العمل اليدوي، ويُمارَس بصفة رئيسية ودائمة في شكل مستقر أو متنقل أو معرضي..."[3].

وعلى أيّة حال، فقد أصبح للصناعة التقليدية أهمية بالغة ومكانة مرموقة عند العديد من الأمم والشعوب، حيث أدركت قيادات بلدان كثيرة، وعلى وجه

---

1 تشمل الأشغال اليدوية الجانب التطبيقي للفن كالفخار والحفر والنقش على الخشب وحياكة السجاد والمنسوجات اليدوية والتطريز والمصنوعات الجلدية كالأحذية والحقائب، ص 15.

2 الرسم والأشغال اليدوية : محمد حسين جودي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، ط2، 1419 هـ/1999م، ص 15.

3 مجمع النصوص التشريعية والتنظيمية التي تحكم قطاع الصناعات التقليدية : مديرية الصناعات التقليدية، الفصل الثالث، الفرع الأول، فيفري 1999، غير مرقّم.

الخصوص الجزائر، الدور التاريخي والاجتماعي والثقافي وخاصة الاقتصادي الذي تلعبه هذه الصناعة باعتبارها إحدى الدعائم الأساسية التي يرتكز عليها قطاع السياحة من جهة، وكذا خطر زوالها الذي بدا واضحا في السنوات الأخيرة من جهة أخرى، فإنّها تسعى جاهدة إلى ضبطها وهيكلتها وتقنينها هادفة من وراء ذلك إلى إحياء ما قد اندثر منها وتطوير ما بقي منها.

الحـــرفي :

وإذا كانت الصناعات التقليدية هي مجموعة الصنائع والحرف المتوارثة، فما هو إذن مفهوم الحرفي كونه الطرف الرئيسي لأيّ صناعة تقليدية ؟.

لقد أفْرَدَ مجمع النصوص التشريعية للصناعات التقليدية تعريفا جامعا وشاملا لمفهوم الحرفي، حيث عرّفه على أنّه :" كلّ شخص طبيعي مسجّل في سجل الصناعة التقليدية والحرف ويمارس نشاطا تقليديا، يثبت تأهيلا و يتولّى بنفسه مباشرةً تنفيذَ وإدارةَ نشاطه وتسييره وتَحَمُّلِ مسؤولياته "[1].

فمن خلال هذا التعريف، نلمس بالفعل العمل الذي ترغب تحقيقه الجهات المشرفة على الصناعات التقليدية، والمتمثل بالدرجة الأولى في إحصاء عدد الحرفيين المنتشرين عبر ولايات الوطن وكذلك التعرّف على أصنافها التي مازال

1 المرجع السابق، غير مرقّم.

أصحابها يمارسونها، و لعلّ الشيء الذي سهّل لها هذه المهمّة هو تسجيل هـــؤلاء الحرفيين ضمن سجّل الصناعات التقليدية، على أنْ تتوفّر في الحرفي :

– التأهيل المهني : يُعدّ من الأسس الذي تختص بها كلّ صنعة، فلا يخفى على أحد منّا أنّ الكثير من المتطفّلين يمارسون أنواعا من الصناعات التقليدية من دون أن تكون لهم مؤهلات أو كفاءات معترف بها.

– تحمّل المسؤولية : تكمن خصوصا في حُسن تسيير وإدارة الحرفي لنشاطه؛ لأنّه على علم بأمور الصناعة التي يمتهنها وبمصادر المواد الأولية واحتياجات السوق و أكثر من ذلك أماكن تسويق منتوجاته.

وعلى الرغم من هذا كلّه، يبقى تحديد معنى الحرفي أمرا غامضا عند كثير من الباحثين؛ حيث يقول صالح عطية الحاج بأنّ الإجابة عن هذا الانشغال أمر ليس يسيرا، بل هو كشف واضح عن عجز كبير في الاتّصال وأنّ مَن نتساءل عنهم – أي الحرفيون – هم في الحقيقة أناس مندمجون معنا كل يوم، وفي كلّ مكان وفي مختلف مجالات حياتنا بشكل أكثر تناقضا، فيصبحون موجودين في مخطط الاتّصال في اليوم الذي يصبحون فيه تحت رحمة الزوال ليشكّل غيابهم نقصا ملاحظا يدفع إلى الحيرة والعمل الجاد من أجل الإنقاذ... إنّ هذه الشريحة لا تظهر في مخططات وبرامج السياسات الاقتصادية بشكل مستقل،

ولكن كثيرا ما تدمج مع فئة التجار ومع المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وهو ما يجعلها هكذا غير معروفة وغير بارزة كقوة مستقلة[1].

ومن جهة أخرى تبقى اللغة المتداولة بشأن الحرفيين مساهمة بشكل كبير في تعكير الرؤيا ووضوحها حول الطاقات الخلاقة والمبدعة لهذه الفئة: فبالنسبة للبعض، الحرفيون ما هُمْ إلاّ عمّال مُستقلّون لوحدهم أو مع مساعدين لهم، وبالنسبة للبعض الآخر فهم الخبازون والجزارون، والحلاّقون...إلخ، فهم بذلك تجار، ليصبح من الصّعب حصرُ هذه الشريحة وعزلها عن المحيط العام بالرغم من تواجدها على كل الخطوط وفي كلّ الميادين[2].

وبعد تسجيل هذه الملاحظة، فهو يُقرّر – أيضا – بأنّ " الحرفيين يوجدون في قلب الحياة اليومية لكل فرد، لكل قطاع، بل لكل دولة، وما يفسّر وجودهم الدائم هذا هو الحاجة الملحة إليهم والتي تُكْتشفُ إذا ما حاولنا أن نتخيّل عالمنا بدونهم... "[3].

وما من شكّ أنّنا إذا تحدّثنا عن الحرفي، فإنّنا لا نجد بدّا مـــن إدراجه ضمن شريحة الفنانين، إذ أنّ التحف الفنية – القديمة والحديثة – التي نجدها في

---

1 ينظر "الحرفي"، مجلة تصدرها الغرفة الوطنية للصناعة التقليدية والحرف، شركة زاعياش للطباعة والنشر، الجزائر، عدد 00، أكتوبر - ديسمبر 2000، ص 28.

2 ينظر المرجع نفسه، ص 28.

3 نفسه، ص 28.

متاحفنا لَهِيَ دليل قاطع على أنّ هذا الفنان تميّز عن غيره بقدراته الفنية المبدعة التي ساهمت بدرجة كبيرة في إعلاء الصورة الثقافية لبلده و في تثمين تراثه، حيث يقول محمد حسين جودي في هذا الصدد :" إنّ التمسّك بالتراث يؤكّد إلى حد كبير مفهوم الهوية الحضارية والثقافية لدى كلّ أمّة في عصرنا الراهن، وهو بهذه الصفة يحمل شرعيته الإنسانية والفكرية والحسيّة وآفاق الإبداع الثقافي في المجتمع، كونه إرثا مرئيا ومعاشا يحيط بكلّ جوانب حياتنا وذاكرتنا و روحنا "[1].

ومن هنا تبرز جليّا مدى المسؤولية التي هي على عاتق الحرفي المتمثلة أساسا في ترويج الثقافة التي يتضمّنها كلّ منتوج تقليدي.

وإذا كنت قد وقفت ولو بشكل موجز على مفهوم الصناعة التقليدية والحِرفي، فإنّني أرغب إضافة لِما تقدّم إعطاء لمحة مختصرة عن قطاع الصناعة التقليدية في الجزائر ومَدينة تلمسان على وجه الخصوص ثم في بعض البلدان العربية. وقد اخترت منها المغرب الأقصى وتونس ومصر لِمَا لها من روابط تاريخية وحضارية مع بلدنا، وثانيا حتّى تكون الدراسة أكثر موضوعية، وثالثا لنحدّد موقع الجزائر في وسط هذه البلدان من خلال إنتاجها التقليدي.

---

1 آراء وأفكار جديدة في الفن وتأصيل الهوية : محمد حسين جودي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1420هـ – 1999، ص 52.

1- الصناعة التقليدية في المغرب الأقصى :

لقد تحوّلت الصناعات التقليدية في المغرب الأقصى إلى منجزات تشكل صورا من صور الإبداع الحرفي، ولأنّ المغرب يتمتّع بتنوع ثقافي خصب يتجلّى في كلّ إبداعاته الفنية والتقليدية، فقد عرف الصانع المغربي كيف يوظّف تلك المعطيات خلال حقب طويلة كعوامل تجديد؛ جعلت من المغرب متحفا لمختلف المهن، وتعكس ذلك الحرف التي هي بحقّ رصيده الثقافي والفنّي الذي مازال يحتفظ بقيمته وأصالته.

ففي عهد الملوك الأدارسة، شهد القطاع الاقتصادي والتجاري تطوّرا لم يعرفه المغرب من قبل؛ فقد لعبت مدينة فاس دورَ الوسيط في (طريق الذهب) الذي كان يربط المملكة بإفريقيا. وفي عهد المرابطين برز فنّ المعمار حيث برع الصناع المغاربة في تشييد وتزيين المساجد والقصور التي بدا عليها تأثير الصناعة الإسلامية المستوردة من الأندلس. واستمرّ هذا التطوّر في عهد الموحدين والمدنيين والسعديين. أمّا في الفترة التي حكم فيها العلويون أصبحت الصناعة التقليدية تشكّل النشاط الرئيسي في المدن المغربية؛ وأصبح القطاع الحرفي يشكّل إحدى أعمدة الاقتصاد المغربي بمشاركته الفعّالة في إنعاش قطاعات أخرى كالسياحة والثقافة.

وممّا لاشكّ فيه أنّ البيوت المغربية لا تخلو، ومهما تفاوتت مستوياتها الاجتماعية، من منتوجات الصناعة التقليدية، ونفس الشيء نلاحظه في المدن المغربية وخصوصا في المدن العتيقة كمراكش وفاس والرباط ومكناس، فهي كذلك لا تخلو من الأحياء الخاصة بالصناعة التقليدية على اختلاف أنواعها وأنشطتها.

ومِن أهمّ الصناعات التقليدية في المغرب : صناعة الخشب التي تعدّ أحد القطاعات الغنيّة والمتنوّعة بتنوع مناطق الإنتاج، فهي لا تنفصل عن فنّ العمارة من حيث صنع الأبواب والنوافذ والسقوف والمساجد والقصور، وفي نفس الوقت تدخل ضمن التأثيث الداخلي لهذه البيوت. أمّا الخشب المرصّع فيُعَدّ من الصناعات المتميّزة بالإتقان الفنّي والدقّة في الإنجاز، حيث أنّه يُعتمدُ في صبغ الخشب على خشب شجر العرعار. و تُطَعَّم المنتوجات المصنّعة منه بقطع من خشب البرتقال أو شجر الأبنوس، و أحيانا يتمّ الترصيع بأصداف بحرية أو عظمية وأسلاك معدنية.

أمّا المصنوعات المعدنية، فهي تمتاز بوجود نوع خاص في الصناعة يُعرف بالحديد الدمشقي[1] الذي تشتهر به مدينة مكناس، و قوام هذه الصناعة

---

1 تنسب هذه الصناعة إلى سوريا، و دخلت إلى المغرب عن طريق إسبانيا.

تطعيم الحديد بمواد أخرى مثل الذهب والفضة في إنتاج بعض المنتوجات مثل الزهريات والصحون والأطباق والصناديق. أمّا الصناعات النحاسية فهي تتجلّى بصورة أجمل في الأدوات المنزلية والتأثيث، وتختص بصنع الثريات والفـــوانيس.

وتشتهر مدينة مراكش وفاس بالصناعة الجلدية والدباغة لمهارة صنّاعها، وهنا نشير إلى التنوّع الكبير في المنتوجات الجلدية من ملابس وأحذية التي تتوقّف أساسا على حرفة الدباغة، هذه الأخيرة التي تعدّ العملية الأولى في هذا النشاط، لتأتي بعد ذلك عملية تحويل الجلد إلى أصناف من المنتوجات الجلدية.

أمّا عن الخزف، فتشتهر به مدينة آسفي الساحلية؛ حيث تشكّل منه تحف فنية رائعة تدخل في تزيين البيوت والفنادق، وهي ذات ألوان زاهية تطبعها زخارف مختلفة.

كما أنّ صناعة الملابس التقليدية لها نصيبها من هذا كلّه، فقد ظلّت لحقب طويلة نشاطا اقتصاديا متكاملا ارتبط بنمط معيشة سكان المغرب؛ حيث شكّلـــت على الدوام المورد الرئيسي لتلبية حاجاتهم من الكساء والغطاء.

ومن خلال هذه الإطلالة الموجزة على أهمّ الصناعات التقليدية التي يزخر بها هذا البلد، نلمس بحق أهمية هذا القطاع الاجتماعية والثقافية وخاصة

الاقتصادية التي ساهمت في إشعاع حضارة المغرب عالميا.

وعلى ضوء ما تقدّم، لا يمكن للمغرب أن يستغني عن الإنتاج التقليدي، فباستطاعته أن يراهن بصناعته التقليدية ليقف في وجه المنتوجات الغَربيَّة التي تغزو يوميًّا أسواقه وأسواق كلّ البلدان العربية.

2- <u>الصناعة التقليدية في تونس</u> :

تونس بلد عريق في تاريخه وحضارته، قريب جدّا من أوروبا وبَعدّ بوّابة إفريقيا من شمالها، كما أنّه عرف مختلف الحضارات التي ظهرت في منطقة البحر الأبيض المتوسط منذ القديم، تاركة بصماتها في ثقافة التونسيين وسلوكهم ولغتهم وصِناعاتهم.

تزخر تونس بمنتوجات مختلفة هي من إبداع الحرفيين والصناع الذين مازالوا متمسّكين بصنعتهم التقليدية، ويرجع السبب في بقائها وازدهارها تطوّر السياحة التي زادتها انتعاشا، إذ أنّ الملايين من السيّاح يزورون تونس كلّ سنة فمنهم العرب ومنهم الأجانب، فيَجدون كلّ ما يرضي أذواقهم ويلبّي حاجاتهم من منتوجات الصناعات التقليدية.

والصناعات التقليدية التونسية متنوّعة بتنوّع المنطقة وما يتوفّر فيها من مواد أوليّة من جهة وما مرّ بها من تاريخ وحضارة من جهة أخرى. فمن أهمّ

الصناعات في تونس صناعة " الزربية التي تشتهر بصناعتها مدينة القيروان بالدرجة الأولى، كما أنّها تصنع أيضا في كامل المنطقة المعروفة بالسّاحل[1]. وَتصدّر الزربية التونسية إلى كلّ أنحاء العالم لما تتميّز به من جودة وَألوان وزَخارف.

وفي منطقة نابل الواقعة في الشمال الشرقي على ساحل البحر بين سوسة جنوبا وَمنطقة العاصمة شمالا، تزدهر صناعة الفخار التي تبدو عليها ملامحُ تأثيرِ الأندلسيين الذين استقروا بتونس إبّان هجرتهم الثانية في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، حَاملين معهم الصنائع وَالحرف. وَتكثر في مدينة نابل بالذات مصانع الخرف الكبيرة وَالصغيرة وَمحلاّت بيع منتوجاتها[2].

أمّا عن حرفة النقش، فهي متمركزة أساسا في مدينة دار شعبان الفهري غير البعيدة عن مدينة نابل، والتي تشتهر بالنقش على الحجر والزجاج، حيث ينتج حرفيّوها المهرة حجارة منقوشة تُزيَّن بها المباني التي يحرص التونسيون على جمالها وَأصالتها، وَالصناعة هذه هي " كذلك من تأثير الأندلسيين والمغاربة القادمين من المغرب الأقصى في بعض الفترات التاريخية، وهذا ما قد تؤكّده توأمة مدينة دار شعبان الفهري مع بعض مدن المغرب "[3]. ويشتهر هذا البلد

1 وَهي المنطقة الساحلية من تونس والتي من أهمّ مدنها سوسة والمنستير والمهدية.

2 مقال على شبكة الأنترنت بدون عنوان : للد. عبد العزيز بن عبد الله السنبل.

3 المرجع نفسه، غير مرقّم.

أيضا بصناعة الشاشية[1] التونسية الشهيرة، والبرنوس وَالمنسوجات على اختلاف أنواعهـــا.

كما تزخر تونس بصناعات تقليدية أخرى هي في معظمها صناعات نفعية تُوفّر منتوجات أكثرها موجّه للاستعمال المنزلي، وَتوجد بها أسواق للأدوات النحاسية وَالجلدية وَالفضية وَالصوفية، وَأسواق للذهب، والخشب والعطور التقليدية والسرّاجين وَغيرها، إلاّ " أنّ زوال العديد من الصناعات التقليدية بسبب تغيّر الظروف والحاجيات الاستهلاكية والأذواق أدّى إلى زوال أسواقها، فلم يبقَ منها إلاّ الاسم، وهو ما يحدث في كلّ بلدان العالم "[2].

وبهذا كلّه، فإنّ المتأمّل في منتوجات الصناعات التقليدية التونسية يجد متعة للنظر، وعبرة للفكر، و يزداد يقينه بأنّ الشعب التونسي على غرار أشقائه من الشعوب العربية شعب ماهرُ مُبدع، حذق في مختلف الصنائع ومارسَ متنوّع الحرف، وتفاعلْ مع المواد المحلية كلّها فطوّعها لصالحه وأخضعها لمصلحته، وهو مـــا يؤكّدّ جدارته بأن يقطع أشواطا كبيرة في حاضره على درب التصنيع والتنمية، فيجمع بين الأصالة والعراقة من جهة، والتفتح والمعاصرة من جهة أخـــرى.

---

1 كلمة تركية تعني الطاقية المنمقة.

2 الصناعات التقليدية في تونس : د. عبد العزيز بن عبد الله السنبل، ص .

3- الصناعة التقليدية في مصر :

تعرف الصناعات التقليدية في هذا البلد انتعاشا وتطوّرا ملحوظيْن، حيث أنّ الزّائر لكثير من مُدُنها يلمس بالفعل ذلك الاهتمام الذي توليه الدولة المصرية لهذا القطاع. ولَعلّ مدينة القاهرة مثال واضح على ذلك، ففي " دورب وَأزقة وحواري القاهرة الفاطمية، وخصوصا في منطقة الجمالية وَشارع المعز لدين الله وَخان الخليلي، تنتشر مئات المراكز وَالورش الصغيرة التي تنهض بالصناعات التقليدية اليدوية والمهارية "[1].

والحرفيون في مصر يَعشقون الإبداع في الهواء الطلق، حيث يُقْبِل على رؤيتهم وَشراءِ منتوجاتهم الكثير من أبناء مصر وَالعالم العربي، فضلا عن السيّاح الأجانب الذي تستهويهم هذه المتاحف المفتوحة على الهواء التي تقدِّم عروضا جميلة مستمرّة في النهار والليل.

وَمـــمّا لاشكّ فـــيه أنّ هذه الصناعات التقليدية المصرية، كصناعة المسابح وَالأشغال المعدنية على النحاس والفضة والصلب والزجاج والتعشيق[2]

---

1 في دروب القاهرة الفاطمية : شريف الشافعي، ص .

2 التعشيق هو طريقة توصيل الحشوات الخشبية ببعضها وذلك بعمل حفرة أو دخلة غائرة في جانـــب من الخشبة تسهل عملية وضع جزء آخر من الخشبة الأخرى مكانها وهذا الجزء الداخل سمّي لسان على أن يكون اللّسان وطوله وعرضه متماثلا مع عمق الحفرة واتّساعها ويطلق على هذه الطريقة (عاشق ومعشوق) أو (تدكيك) فتصبح في النهاية مدكّكة.

وَالتطـــعيم[1] والنسج على الأنوال والأرابيسك[2]... وَغيرها لمْ تكن في بدايتها مجرّد صناعات تهدف إلى التكسّب، أو مجرّد مهارات يتمّ تلقينها بشكل أكاديمي، ولكنّها كانت فنونا فطرية ارتبطت منذ نشأتها بأنماط معيّنة تؤدّي من خلالها وظائف اجتماعية بلغة إبداعية حضارية. وتذكر المراجع التاريخية أنّ " بعض هذه الفنون مثل فنّ الأرابيسك كان وليدًا للحضارة الفرعونية القديمة "[3]، وهي الحضارة التي كان لها السبق في صناعة الأثاث المرصع بالأحجار الكريمة وَبالمعادن النفسية كالذهب. وَقد قطع الفراعنة أشواطا كبيرة في هذا المجال، فخرجت من بين أصابعهم الذواقة قطع من الأثاث غاية في الروعة وَالجمال.

وَفي العصور الإسلامية، وبصفة خاصة في العصر الفاطمي اتّسع نطاق هذه الصناعات وَتعدّدت أنماطها وَأشكالها وَكثرت الخامات المستخدمة فيها. وقد تميّز هذا العصر بانتشار الأسواق المختلفة وَالساحات العامة، وسمّيت كلّ سوق من هذه الأسواق "قيسارية"[4]. وَأصبحت منطقة "خان الخليلي" مَشهورة بِصناعة

---

1 التطعيم هو أن يطعّم الخشب بالعاج أو العظم ويشكّل منه منتوجات كالعلب والصناديق. ويطعّم كذلك المعدن بمعدن آخر كالبرونز والنحاس والفضة لإنتاج الصحون والأطباق والثريات الأباريق والمباخر.

2 الأرابيسك أو ما يسمّى بفنّ الرقش العربي، ظهر في القرن الثالث الهجري، وهـو عبـارة عـن زخارف هندسية ونباتية وكتابية.

3 في دروب القاهرة الفاطمية : شريف الشافعي، ص .

4 القيسارية : لفظة مأخوذة من اللاتينية وهو مشتق من كلمة قيصر أحد أباطرة الرومان. وتعني الكلمة مدينة قيصر.

الجواهر وَالمعادن الثمينة، حيث " تَمَّ تقسيمها إلى حارات، تحمل كل واحد منها اسم الصناعة المنتشرة فيها، مثل: حارة النحاسين، وَحارة الصاغة، وَالعطارين وَالقماشين وَالصنادقية، إلخ "[1].

وَمازالت هذه الصناعات " مزدهرة في مصر إلى أيّامنا، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّها تستمدّ عبقريتها الفنية التلقائية من كونها عملية حيوية تؤدّي أغراضا حياتية وَتُرضي أذواق المجتمع الذي يقبل على طلبها وشرائها، فهي ليست مجرّد فنون خارج نطاق المجتمع، تُصنع من أجل الزينة أو من أجل لفت نظر السائحين . إلاّ " أنّ هناك بعض الصناعات قد اندثرت تماما بالطبع أو أوشكت على الاندثار كصناعة الطرابيش مثلا، كما أنّ هناك صناعات أخرى قد قاومت رياح الزوال بأنْ غيّرت من جلدها و سلّمت بأمر الواقع واستسلمت للآلة الكهربائية الحديثة "[2].

وَعلى أيّة حال، لا يزال الحرفيون المصريون يحافظون على نسبة كبيرة من صناعاتهم التقليدية شأنهم في ذلك شأن حرفيّ المغرب الأقصى، ولعلّ السبب في ذلك يرجع أساس إلى ازدهار السياحة في هذا البلد.

---

1 في دروب القاهرة الفاطمية : مقال على شبكة الأنترنت، بدون مؤلّف،

2 المرجع نفسه.

4- الصناعة التقليدية في الجزائر :

تزخر الجزائر برصيد هائل من الصناعات التقليدية، فهي أنواع متعدّدة ومختلفة نجدها في مناطق من البلاد ولا نجدها في أخرى وهذا راجع لكونها مرتبطة بالظروف البيئية، فـ " الموقع الجغرافي لمنطقة مسكونة ومَنَاخها من العوامل التي لا يمكن للإنسان الحرفي أن يتناساها عند صنعه لتحفة فنية "[1].

وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم هذا الصناعات إلى ثلاثة فروع : ريفية وحضرية وصحراوية، هذا لا يعني أنّه لا يمكن أن نجد صناعة تقليدية خاصة بصحرائنا مثلا في بيئة حضرية، ولعلّ امتهان الصناعة الجلدية في الجنوب والشمال الجزائري لدليل واضح على ذلك، ولكن الاختلاف بيّـن من حيث طبيعة المنتوج و زخرفته.

يتميّز قطاع الصناعات التقليدية في الجزائر بإنتاج أنواع من المصنوعات التي يغلب عليها أساسا الطابع اليدوي، فهي نتاج إرث حافظ على نمطيته المتمثّلة في مجموع التقنيات المستعملة وأصالة الزخارف، والألوان المتنوعة التي توارثها الخلف عن السلف منذ أزمنة بعيدة.

تشتهر الجزائر بأنواع عديدة من الصناعات التقليدية، عُرفت منتوجاتها في

1 Elément sur la tradition orale : Youcef Nassib, Société Nationale d'Edition et de diffusion. Alger, 2 Ed., 1982, p.28.

الكثير من البلدان العربية والأجنبية لما تتميّز به من إتقان وَجودة العالية.

وَمن أهمّ هذه الصناعات :

* صناعة المنسوجات (الزرابي) : تعدّ هذه الصناعة من إحدى الفروع التي تدخل ضمن الصناعات النسيجية، إذْ أنّها تحتلّ مكانة كبيرة في المجتمع الجزائري سواء البدوي أو الحضري، ولعلّها اكتسبت هذه المكانة من خلال التنوّع الكبير في أساليب الصنع المختلفة وَكذا التنوّع في التعابير الزخرفية الهندسية وَالنباتية وَحتى الحيوانية في بعض الأحيان التي أبدع الحرفي في نسجها وَرسْمها بكلّ إتقان، ضف إلى ذلك طول مدة إنجاز الزربية وَغلاء سعرها.

تشتهر عدة مدن من القطر الجزائري بصناعة الزربية، وكلّ منطقة لها خصوصياتها وَتقنياتها، ولعلّ الاختلاف الواضح في الشكل والحجم وحسن استخدام الألوان وَالتفنن في الزخرفة وكذا نوعية الأصواف المستعملة هو الذي جعل هذا المنتوج الجزائري يُعرف في وقت من الأوقات في العديد من البلدان، العربية منها والأجنبية.

ومن المدن المعروفة بزرابيها بسكرة والأغواط وقالمة وتبسة وغرداية وجبل عمور وَمعسكر وَتلمسان المدينةُ التي اشتهرت وطنيا وَعالميا بهذا النوع من الصناعة النسيجية.

* الفخـــار : لقد عرف الإنسان مادة الطين منذ القدم، حيث استطاع عن طريق

العجن وَالخرْط وَالقولبة أن يصنع لنفسه العديد من الأواني والنماذج الفخارية في أشكال وَأحجام متنوعة وَبألوان وَزخارف تختلف من منطقة إلى أخرى كالصحون والأكواب والجِرار وَالمزهريات وَالمصابيح (كالمصابيح الزيتية لمنطقة القبائل وَالأوراس) والتي استعملها بالدرجة الأولى في حياته اليومية لأغراض نفعية، فهي " تستعمل كأواني للمأكولات (أواني الطبخ وَالأكل)، وأخرى استعملت لأغراض سحرية وَدينية (في الجنائز مثلا)، وَأواني للزخرفة فقط، وأواني للتخزين...إلخ "[1].

وَممّا لاشكّ فيه أنّ توفّر المادة الطينية في الكثير من المدن الجزائرية هو السبب الرئيسي في وجود عدد كبير من المراكز الإنتاجية التي تهتم بالصناعة الفخارية. فمن المناطق التي مازالت تشتهر بمصنوعاتها الطينية الميزاب وجرجرة والأوراس وَالهضاب العليا وتلمسان (ندرومة وَمسيردة) كونها اكتسبت هذه الشهرة منذ عهود قديمة، وَيقول محمد الطيب عقاب في الشأن :" غير أنّ الحفريات التي أجريت بالجزائر مكّنت الباحثين من الإقرار بتعيين مراكز إنتاجية ثابتة، وهي موجودة بقلعة بني حمّاد وتلمسان وتاهرت على الأقل"[2].

1 **Elément sor la tradition orale : Youcef Nassib, p. 29.**

2 الأواني الفخارية الإسلامية – دراسة تحليلية فنية مقارنة : محمد الطيب عقاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص 35.

* صناعة الحُلى : ترتبط صناعة الحلي ارتباطا وثيقا بمعرفة الإنسان القديم للمعادن، فسكان الشمال الإفريقي قد عرفوا النحاس والبرونز قبل معرفتهم لمعدن الحديد وخاصة في المناطق الغربية من بلاد البربر، حيث عُثر في قبور قديمة على نماذج وقطع من الحلي المعدنية منها أساور مفتوحة وخلاخل وخواتم وأقراط[1].

وأمّا الجزائر، فقد عرفت تطوّرا كبيرا لصناعة الحلي في بداية العصر التركي خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولعلّ شهادة الرحالة (فانتير دوبارادي) لدليل قاطع على ذلك؛ إذ أنّه كتب قائلا :" إنّ النساء الثريّات المدنيات كنّ يضعن على رؤوسهنّ قبعات عالية متقنة الصنع و يزينّ أرجلهنّ بخلاخل ضخمة كما يتزينّ بأساور تملأ أذرعهنّ من مفصل الزند إلى المرفق "[2].

وبقيت هذه الصناعة على تلك الحال حتى الفترة الاستعمارية حيث اشتهرت منطقة بني يني في الزواوة بالحلي وكذا صاغة العاصمة وتلمسان وقسنطينة[3]، فكانت هذه المدن لوحدها تعدّ حوالي 200 منقش للجواهر[4].

---

1 تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر : ك. إبراهيمي، ترجمة محمد البشير شنيتي و رشيد بورويبة، الشركة الوطنية للتوزيع، 1982، ص 34.

2 المجوهرات والحلي في الجزائر : بن ونيش فريدة، "سلسلة الفن والثقافة"، وزارة الثقافة والإعلام، طبع ورشات الفنون المطبعية التأميرا، – مدريد، إسبانيا، 1976، ص 10.

3 تاريخ الجزائر الثقافي : أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1998، ط1، ج8، ص355.

4 الصناعات التقليدية الجزائرية : المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، أفريل 1998، ص56.

وعلى الرغم من التغيّر الذي طرأ على صناعة الحلي في وقتنا الحاضر من خلال ابتكارْ أنواع وَأشكال جديدة أكثر عصرنة وَمُنافسةً للمنتوج الأوروبي الدخيل على عاداتنا وَتقاليدنا، فإنّه لم يبقَ في الجزائر إلاّ أربع مناطق فقط التي لا تزال متمسّكة بهذا الموروث الحضاري والفني على الرغم من كلّ التأثيرات الخارجية الثقافية والاقتصادية، وهذه المناطق هي :

1- منطقة الأوراس : مِن خصوصيات حُلي هذه المنطقة هو أنّه " مصنوع من معدن الفضة المسكوب أو المحفور "[1]، ومن المصنوعات المشهورة في الأوراس: الأحزمة الفضية ذات الصفائح المستطيلة المزخرفة بالأشكال الهندسية المختلفة وَالأقراط، والأساور والمشابك التي تكون عادة غير مزيّنة بالمرجان وَغير مطلية بالميناء.

2- منطقة القبائل : الحلي القبائلي " ذو ألوان كثيرة، يدخل في تصنيعها المرجان الأحمر وَالفضة البيضاء وَالميناء ذات اللون الأخضر والأزرق والأحمر "[2].

ومن المنتوجات التي تشتهر بها المنطقة : حليات الأذن وَالتيجان النسائية وَالعقود والأساور والخواتم والأحزمة.

3- منطقة المسيلة : وهي تشبه في مميزاتها وخصائصها الحلي الأوراسية،

---

1 Elément sur la tradition orale : Youcef Nassib, p. 30.

2 المرجع السابق، ص 30.

نظرا للتقارب العرقي والتاريخي والجغرافي للمنطقتين.

4- منطقة الجنوب (الطوارق) : و" تمتاز الحلي الطوارقية بالبساطة وأحادية اللون مع انعدام كلّ لون ماعدا لون الفضة "[1]، فإلى جانب معدن الفضة، تستعمل معادن أخرى بدرجات متفاوتة، إذ أنّ الطبقة البسيطة من الحرفيين تستعمل معدن النحاس بَدَلَ الفضة، ويتعبه معدن الحديد بدرجة أقل. وتعرف هذه المنطقة بأنواع كثيرة من الحُلي من أهمّها : الأساور النسائية المركبّة بالعقيق أو بحبّات الزجاج الملوّنة، والأساور الفضية التي المحمولة من طرف النساء والرجال، والأقراط ذات الأشكال المختلفة والزخارف الجميلة والخواتم.

* الصناعة الجلدية : ما من شك أنّ الصناعة الجلدية تغوص جذورها في أعماق التاريخ، فقد عرفها الإنسان الأول إثر صيده للحيوانات ثمّ من خلال تربيتها، وهكذا استفاد من لحومها في مأكله وجلودها ليقيَ نفسه من المؤثرات الطبيعية. وبمرور الأزمنة استطاع أن يخلق من هذه المادة حرفة أنتج بها أنواعا عديدة من المستلزمات استعملها بالدرجة الأولى لأغراض نفعية ثمّ للزخرفة. وهكذا كان تطوّر وبقاء هذه الصناعة إلى أيّامنا أمرا طبيعيا ومنطقيا.

وما من شكّ أنّ الصناعة الجلدية متواجدة في كل المدن الجزائرية وخاصة

---

1 الحلي التقليدية لطوارق الهقار – دراسة فنية : بن عبد الله نورالدين، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2201/2001، ص 11.

في المناطق التي تتوفّر على ثروة حيوانية كبيرة وَالتي تُولي قِطاعَ تربية المواشي اهتماما بالغا. فالصحراء الكبرى وبالخصوص تمنراست، لا يزال أناسها يحافظون على هذه الحرفة بكل أمانة، على الرغم من طغيان الطابع التجاري على الكثير من مصنوعاتهم[1].

وَمن المصْنوعات الجلدية التي ينتجها حرفيُّو المنطقة محافظ السفر (أراق) وَمحافظ السروج (السديرة) وهي مستعملة للأسفار الطويلة وَالمحافظ المصنوعة من الجلد اللين (طرالبت)، إلى غير ذلك.

وَتلمسان كذلك إحدى المدن الجزائرية التي اشتهرت في وقت ليس بالبعيد بالصناعة الجلدية حيث أنّها " تنحدر أساسا من فـنّ التطريز والخياطة، وهي متأثرة بثقافة الأندلس حاضرة الفن الإسباني– المغربي "[2]. ومن المنتوجات التي اشتهرت بها المدينة صناعة البلاغي المطروزة في أغلب الأحيان بالخيط الذهبي أو الفضي وَالتي برع الحرفيون في زخرفتها بأشكال هندسية أحيانا وَنباتية أحيانا أخرى، هذا إلى جانب منتوجات أخرى كالمحافظ والوسائد الجلدية وسروج الخيل و ما يرتبط بها.

هذه بعض الصناعات التي تشتهر بها الجزائر ذكرت أهمّها على سبيل

---

1 Voir : Dossier de presse : 7ème Salon National de l'artisanat traditionnel, Agence National de l'artisanat traditionnel, Palais de la culture, du 08 au 18/11/2000, p. 10

2 المرجع نفسه، ص 10.

المثال لا على سبيل الحصر، فبلادنا تزخر بنشاطات حرفية أخرى يطول الحديث عنها وتستحق تحليلا واسعا ودراسة معمّقة.

5- الصناعة التقليدية في تلمسان :

أردت أن أتكلّم في هذا التمهيد عن مدينة تلمسان رغبة منّي في التعريف بماضيها الاقتصادي البعيد من جهة، ثمّ حتّى تكون للقارئ خلفية معلوماتية عن الدور الذي لعبته في المجال التجاري، كونها استقطبت عددا كبيرا من الصناعات التقليدية التي شهدت نموّا وانتعاشا لحقب طويلة. وإنّني سأتطرّق لواقع هذه الصناعات في الفصل الأوّل من الرسالة.

تلمسان، مدينة الفن والتاريخ، هكذا تُعرف في وقتنا الحاضر، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى ما عرفته – عبر مرور العصور – من تعاقب لحضارات مختلفة تركت كلّ واحدة منها آثارا لا يزال الكثير منها قائما يشهد على مدى التطوّر الفنّي الذي حظيت به.

كما أنّ الموقع الجغرافي المتميّز لتلمسان بين الشرق والغرب من جهة وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى جعل منها في عهود سابقة مركزا تجاريا ذو أهمية بالغة في إفريقيا، فكانت تؤمّها القوافل المحمّلة بالسلع والبضائع من مختلف البلدان؛ إذ أنّ " القوافل التي كانت تأتي من المغرب الأقصى قاصدة المغرب الأوسط والأدنى لابدّ لها من المرور بتلمسان والوقوف بها ولو بضعة أيّام فقط، وكذلك القوافل الآتية من إفريقية و المغرب الأوسط قاصدة المغرب

الأقصى لابدّ لها من المرور بتلمسان والوقوف بها "[1]، وهذا لدليل على ازدهار الصناعة والتجارة في هذه المدينة، وقد عبّر عن هذه الفكرة المؤرخ مبارك الميلي في كتابه "تاريخ الجزائر" قائلا عنها أنّها :" فلاحية بطبيعة أرضها، تجارية بطبيعة موقعها، صناعية بطبيعة سكّانها "[2].

ففي عهد الأدارسة، شهدت تلمسان حركة تجارية كبيرة شملت كلّ أنواع المصنوعات التقليدية حيث " كانت القوافل تغشى السودان بسلعها المصنوعة بأقادير[3] وَالواردة عليها من مختلف البلدان من منسوجات صوفية وقطنية وكتانية وفخار مطلي وحُليْ ذهبية وَفضيّة وَأواني نحاسية وَخشب منقوش مرصع بالعاج، وَمصنوعات حديدية كالأسلحة وَالأقفال وَأفاويح وَملح وَعطور وَبخور"[4]. ثمّ قوافل أخرى كانت تقصد مصر لِجلب كلّ المنتوجات التي لا يصنعها أهل أقادير.

و ما من شكّ أنّ هذه التجارة داخل البلاد وخارجها قد غيّرت من المستوى المعيشي للمجتمع التلمساني، كونها درّت عليهم الثروات والأموال الضخمة، فَعَمّ المدينة الرخاء. ولهذا كلّه قال عنها الشريف الإدريسي :" لم يكن في بلاد المغرب

---

1 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان : الحاج محمد بن رمضان شاوش، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 338.

2 تاريخ الجزائر في القديم والحديث : لمبارك الميلي، طبعة الجزائر، ج2، ص 377.

3 وهو الاسم الذي عرفت به تلمسان لمّا استقرّ بها البربر.

4 تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد عمرو الطمّار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 33.

بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرّفه منهم حالا "[1]. وقد أدّت هذه الحركة التجارية إلى تطوّر ملحوظ في الصناعات التقليدية كـ " النسيج والزربية والجلود والنحاس والخزف "[2] إلى جانب صناعات أخرى كالدباغة والنقش على الخشب والأسلحة والآلات الحديدية. فكانت هذه الصناعات من الأسباب التي أدّت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية بأقادير.

أمّا في عهد المرابطيّن، شهدت الحالة الاقتصادية نموّا وانتعاشا كبريْن، وخاصة بعد أن أسّس يوسف بن تاشفين مدينة "تاجرارت" سنة 474 هـ قرب المدينة القديمة "أقادير"، فكثرت الخيرات وازدهرت الصناعات وَ " لم تنقطع التيارات التجارية بين تلمسان والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد السود بل زادت نشاطا "[3]، وأصبحت تلمسان من أهمّ مدن المغرب الأوسط.

وفي الفترة التي حكم فيها الموحّدون، شهدت تلمسان هجرة الأندلسيين إليها، فكان لهم الفضل الكبير في التطوّر الذي عرفته المدينة؛ حيث أصبح " سكّان المدن يميلون إلى الاقتداء بالأندلسيين في شتى المجالات، من موسيقى وغناء وشعر وكتابة فنية، وفي مختلف الصناعات، كصناعة النحاس، ونَحْتِ الرخام ونقش

---

1 وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية : مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق، تأليف الشريف الإدريسي، واعتنى بتصحيحه ونشره هنري بيريس، الجزائر، 1376هـ – 1957م.

2 تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد عمرو الطمّار، ص 33.

3 المرجع نفسه، ص 50.

الخشب وغير ذلك"[1]، وهكذا نشطت الحركة الاقتصادية بداخل المدينة وكَثُرت علاقاتها التجارية الخارجية.

أمّا عن الزيانيين، فكانت لهم أيضا عناية كبيرة بالمجال الاقتصادي وبكلّ ما يرتبط به، ففي عهد "يغمراسن بن زيان" عَرَفت تلمسان نموّا اقتصاديا كبيرا وَأصبحت "هادئة عامرة، يمارس صنّاعها أعمالهم في اطمئنان "[2]، وَقَوِيَت العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة. وقد سار حفيده من بعده "أبو تاشفين" على نفس المنهاج، فَأَوْلَى التجارة أهميّة بالغة إيمانا منه بأنّها بقدر ما تَزدهرُ وَتَرُوجُ بقدر ما تَتَوسَّع الصّناعات وَيكثرُ نشاط الصنَّاع وَالحرفيّين، وَ " ممّا يُعبِّر عن نشاطهم ذلك الضجيج الذائع من معامل الصفّارين[3] وَالحدادين وَالنجارين وَالسلاّحين "[4].

واستمرّ الانتعاش الاقتصادي خلال العهد الزيّاني من حاكم إلى آخر رغم الحروب والنزاعات التي شهدتها فترة حكمهم، فقد سعى أبو حمو موسى الثاني إلى رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع التلمساني بِدعمه للتجارة الداخلية والخارجية لتلمسان، وَتشجيع الصناعة من جهة أخرى؛ فـ " كانت

1 أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره: عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ – 1974م، ص 58.

2 تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد عمرو الطمّار، ص 94.

3 الصفّارين جمع صفّار وهو الحرفيّ الذي يمتهن الصناعة النحاسية.

4 تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد عمرو الطمّار، ص 130.

معامل الصوف والأحصرة والخزف كثيرة في القرى والدساكر "[1]، إلى جانب صناعات أخرى تختص بها النساء كصنع الأثوبة الصوفية والخمائل والتطريز والخياطة[2]؛ فكان قسط من هذه المنتوجات يُوجّه إلى الأسواق الداخلية، و قسط آخر يُصدَّر إلى بلدان أخرى لأنّ البلاد كان لها الاكتفاء الذاتي بمواردها ومصنوعاتها.

لكن هذا النموّ الاقتصادي لم يُكتب له البقاء الأبدي، فقد تميّزت الفترة الممتدّة من موت أبي حمو موسى الثاني إلى نهاية الحكم الزيّاني بكثرة الصراعات والنزاعات السياسية والاجتماعية وكثرة الحروب، الأمر الذي أدّى إلى تدهور اقتصاد المدينة فنَقُصت الصناعات وقلّت المنتوجات.

أمّا في الفترة التي حكم فيها الأتراك، شهدت مدينة تلمسان استقرارا أمنيًّا نسبيا كان له أثره الواضح في كلّ المجالات وخاصة الجانب الاقتصادي. وقد صاحب هذا الاستقرار انتعاش في الصناعات التقليدية على اختلاف أنواعها، فـ " قد أحذق الصنّاع في النسيج والدّباغة والنحاس والأسلحة كالسيوف والبنادق"[3]، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى المهارة اليدوية والفنيّة التي كان يتمتّع بها العنصر التركي نظرا لتحكّمه في تقنيات الصناعة وفي مختلف وسائل الإنتاج، إلى جانب الامتيازات

1 المرجع السابق، ص 204.

2 ينظر المرجع نفسه، ص 204.

3 تلمسان عبر العصور – دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد عمرو الطمّار، ص 237.

التي انفرد بها من دون سكّان المدينة[1].

واستمرّت الحركة التجارية بمجيء المستعمر الفرنسي، حيث كانت هناك في بداية الاحتلال " ساحة تدعى ساحة القوافل (ساحة الجزائر إبّان الاحتلال) كان ينزل بها التجار الآتون من الصحراء ولاسيّما قبيلة بني حميان الذين كانوا يأتون بجمال محمّلة بالبضائع من صوف ودهان وتمر والجلد المعروف بالفيلالي، وبعد أن يبيعوا تلك البضائع يشترون الحبوب والأقمشة والأواني المعدنية ويعودون إلى بلادهم بجمالهم الحاملة تلك البضائع "[2]. وهذا دليل على حفاظ حرفيّو المدينة على صناعتهم التقليدية.

كما لعبت القيسارية (شارع معسكر في ذلك الوقت) دورا هامّا في الحياة الاقتصادية للمدينة، إذ أنّها استقطبت معظم – إن لم نقل كلّها – الحرف التقليدية، فكان يتواجد بها " البلاغجية[3] والخيّاطون والصاغة اليهود والطرّازون بالخيط الذهبي "[4] إلى جانب صناعات أخرى كالسرّاجة والنقش على الخشب والصناعة النحاسية.

لكنّ السلطات الفرنسية – رغبة منها في التوسع – قامت بإحداث تغييرات

---

1 وهم – قبل مجيء – الأتراك خليط من العنصر التلمساني الأصيل والعنصر الأندلسي.

2 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان : الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 340.

3 أطلق عليهم هذا الاسم لأنّهم كانوا يمتهنون صناعة "البلغة"، وهي نوع من الأحذية.

4 Tlemcen au passé retrouvé : Louis ABADIE, Edition Jacques Gandini, 1994, P.21.

في التصميم العمراني لتلمسان فهدّمت الأسواق الشعبية وشيّدت مكانها منازلا وساحات وأسواقا جديدة عصرية، هَادفة من وراء ذلك تحطيم كلّ المقوّمات الاقتصادية للمدينة وخاصة الصناعات التقليدية حتّى تتمكّن من مسايرة التطوّر التكنولوجي الذي حملته الثورة الصناعية.

ولا يخفى على أحد منّا أنّ لكل فنّ زمنه الذهبي، هذا ما عرفته الصناعة التقليدية لحقب طويلة، فمن خلال الإطلالة الموجزة التي خصّصتها لبعض البلدان العربية (المغرب الأقصى وتونس ومصر) ثمّ الجزائر وتلمسان على وجه الخصوص، نلمس بالفعل مدى الأهمية التي أولاها المجتمع العربي لهذه الصناعة، فكان همّه الوحيد هو الحفاظ على هذا الإرث الذي تركه آباؤهم وأجدادهم.

شهدت الصناعة التقليدية في الجزائر شأنها في ذلك شأن العديد من البلدان العربية تألّقا واضحا بلغ ذروته في الفترة ما قبل القرن الثامن عشر. ولكنّ ذلك لم يَدُم طويلا، فقد كان للثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا تأثيرات سلبية على بعض من الصناعات والحرف، حيث أصبح موقعها " يتراجع متنقّلا من المركزية إلى الهامش، فاقدا مكانته الأولى التي كانت تشكّل العمود الفقري لاقتصاد البوادي والحواضر "[1].

---

1 الصناعة التقليدية بمنطقة تيديكلت – صناعة الفخار والجلود نموذجا – دراسة ميدانية فنية إثنوغرافية: بوسليم صالح، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2002/2001، ص 21.

لقد أحدثت الثورة الصناعية تغييرا كبيرا في أساليب التصنيع بإدخالها لتقنيات حديثة ومَواد خام جديدة تعويضية كمعدن الألومنيوم الذي عوّض النحاس في صناعة الأواني ومَادة البلاستيك التي عوّضت العاج في صناعة الأمشاط مثلا. كما سمحت بإنتاج الكميات الكبيرة من السلع والبضائع بتكاليف منخفضة، الشيء الذي أدّى إلى انتعاش المبادلات التجارية عبر الأسواق الداخلية والخارجية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا التحوّل قد غيّر من طبائع المجتمع الجزائري الذي أصبح تَفَاعُله مع متطلّبات الحياة العصرية شيئا حتميّا أدّى بالضرورة إلى تغيير نمط معيشته وَ فِكره، فأصبح مجتمعا مستهلكا أكثر منه مجتمعا منتجا.

ومن هنا بدأت قيمة العمل اليدوي تنخفض شيئا فشيئا، الأمر الذي أرغم الكثير من الحرفيين على هجرة صنائعهم.

الفصل الأوّل

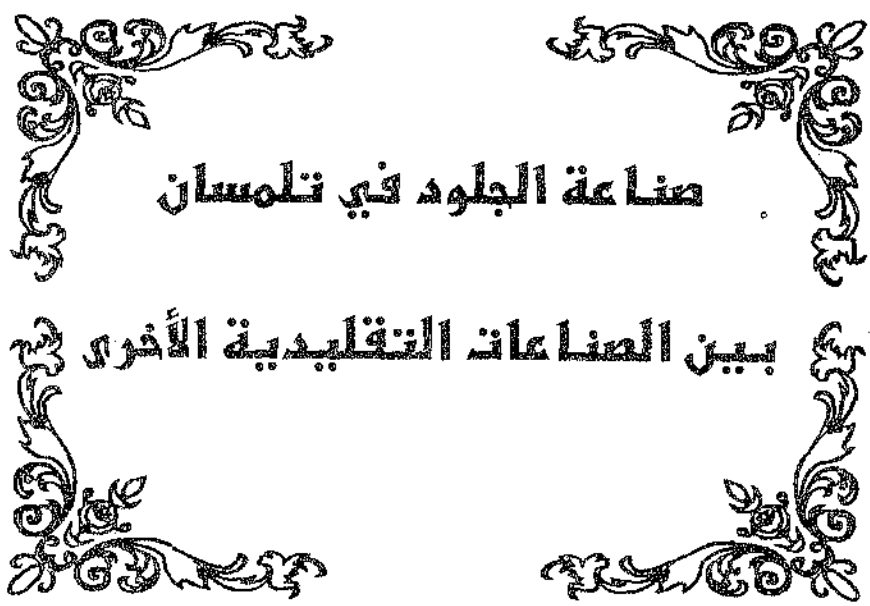

لقد حاولت من خلال ما تقدّم في التمهيد أن أبرز – ولو بشكل موجز – ملامح النشاط الاقتصادي وَالتجاري الذي عرفته تلمسان منذ القرون الوسطى إلى أيّامنا. ومن خلال هذه العرض يتبيّن أنّ تلمسان عرفت في العموم نموّا وانتعاشا اقتصاديا في مختلف فترات الحكم، وهذا رغم كلّ الصراعات والحروب التي شهدتها وَالتي أدّت إلى سقوطها في كلّ مرة بيَدِ ملوك وَحكّام جُدد. وَقد صاحب هذا الانتعاش – كما بيّنا في التمهيد – انتعاش في الصناعات (التقليدية بالطبع)، حيث أصبحت تلمسان مركزا تجاريا تؤمّه القوافل التجارية من كلّ الأقطار، البعيدة منها والقريبة، الأمر الذي أدّى إلى ارتفاع صادراتها التي فاقت وَارداتها.

وبقيت تلمسان لعهود طويلة على هذا الحال، تزخر بصناعتها التقليدية المختلفة إلى أن دَاهمها تيّار العصرنة وَالحداثة الذي غزى الأسواق المحلية بمنتوجاته الواردة من كلّ البلدان، خاصة البلدان التي كان لها السّبق في استعمال الوسائل الإنتاجية الحديثة من آلات ميكانيكية وَمواد خام تعويضية كالألومنيوم والبلاستيك والجلود الاصطناعية.

فمّا من شكّ أنّ طغيان الصناعة الحديثة بفضائها الإنتاجي الواسع على الأسواق المحليّة قد أثّر سلبا على النشاطات التقليدية في مدينة تلمسان، وأصبحت بذلك قيمة العمل اليدوي تنخفض شيئا فشيئا، مُهدّدة القطاع بالزوال والانقراض.

كما أنّ التغيّرات الهائلة التي طرأت على أنماط العيش في المجتمع التلمساني كان لها أثرها الواضح في تقهقر الصناعة التقليدية؛ حيث أنّها تشهد في السنوات الأخيرة نوعا من التهميش وَاللامبالاة نتيجة الصعوبات التي وقفت حائلا أمام ترقيتها وَإنعاشها بالرغم من كلّ ما تقوم به الدولة من إجراءات للنهوض بها، وَأصبحت هكذا تتراجع مع مرور الوقت بسبب تخلّي أصحابها عنها وَهروبهم نحو ميادين أخرى تضمن لهم ديمومة العمل وَالكسب، إلى جانب معاناة الحرفيين الذين لا يزالون متمسّكين بصنائعهم من مشكل تسويق منتوجهم التقليدي، هذا المنتوج الذي لم يعدْ يلقى الأهمية نفسها التي كان يعرفها في زمن ليس بالبعيد.

وإذا كانت الصناعة التقليدية في مدينة تلمسان غير قادرة على منافسة الصناعة الحديثة في ميدان الاستهلاك المحلّي، فما من شكّ أنّها قادرة على أن تضمن مَركزيتها وَقيمتها الإنتاجية في ميدان الزينة وَالهدايا، وقد تأكّد لي ذلك من خلال الزيارات الميدانية التي قمت بها للمحلاّت القليلة المتخصّصة في بَيْع المصنوعات التقليدية وَالتي لا يزال أصحابها متشبّثين بها.

كما أنّ الوافد على هذه المحلاّت، يلاحظ بأنّ المنتوج التقليدي المعروض بها يبرز مدى التحوّل الذي طرأ على الحرفيون، حيث أنّهم انتهجوا في الآونة الأخيرة أسلوبا جديدا في الإنتاج راحوا من خلاله يُزاوجون بين تقديم مستويين

من الصناعة: أحدهما سياحي (فاخر)، وَالأخر شعبي (تجاري) يضمن لهم، في جميع الأحوال، مدخولا متميّزا ودائم.

وَهذا الازدواج في التصنيع، بين السياحي وَالتجاري يُصاحبه بِالضرورة ازدواج مُشابه لدى المُقبلين على الشراء، فهناك فارق بين الغرض (الاستعمالي) للشراء، وَبين الشراء من أجل الديكور، فقد صار الفرد منّا يميل إلى المنتوج العادي في تعاملاته اليومية، مع عدم الوقوف طويلا عند مسألة التذوّق والخصوصية. وْلعلّ ذلك يفسّر لماذا تحوّلت صواني الأمس النحاسية المنقوشة وَالأكواب المزخرفة وَالأطباق وَما إلى ذلك من غرضها الاستعمالي اليومي إلى غرض جديد مختلف تماما هو الديكور (التجميل والزينة).

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الكثير من الصناعات التقليدية في مدينة تلمسان – وإن لم نقل كلّها – بقيت لعهد طويل حكرا على فئة محددة وَمحدودة من المجتمع وَهي متمثّلة في فئة الشيوخ رجالا وَنساءً، كما أنّها انحصرت في الطبقة التي تفتقر إلى الإمكانيات المادية، الأمر الذي يجرّنا إلى التساؤل من جديد حول ديمومة هذه الصناعات وَبقائها إذا مَا رحل عنها أصحابها.

وعلى أيّة حال، فإنّ تلمسان قد عُرفت منذ العهود الأولى بتنوعٍ كبير في الصناعات التقليدية؛ الأمر الذي جعل منها – وقد سبقت الإشارة إلى ذلك –

مركزا تجاريا واقتصاديا يأتيه التجار من كلّ حدب، فاكتسبت بذلك أهمية بالغة في القارة الإفريقية وخارجها، وقد أدّى ذلك إلى إيجاد عدد كبير من الحرفيين منتشرين داخل المدينة، حيث لا تزال إلى أيّامنا " كثير من الأمكنة من أحياء وحارات وأسواق وأبواب وطرق وَجوامع بتلمسان تحمل اسم الحرفة أو الصناعة التي كانت قـائمة بها في العهد القديم "[1]، الشيء الذي يدلّ على اتّساع رقعة الحرف وزيادة عددها. ومن هذه الأمكنة : طريق المعصرة أي معصرة الزيتون، وَسوق الغزل، وسوق منشر الجلد الذي كانت تنشط به ثلاثة طوائف من الصنّاع وَهُم الدبّاغون وَالخرّازون وَالسرّاجون، وَحمّام الصباغين وحيّ الفخّارين وباب القرمدين وجامع سيدي الوزان وَدرب الصبّانين وَدرب المشاطين إلى غير ذلك.

1- الإطار الرسمي للصناعات التقليدية :

لا يخفى على أحد أنّ الصناعة التقليدية في الكثير من المدن الجزائرية وَتلمسان على وجه الخصوص عَانَتْ لسنين طويلة من قلّة الاهتمام وَالعناية؛ لأنّ الجهات الرسمية تناست الدور الذي قد تلعبه هذه الصناعات في تنمية اقتصاد البلاد.

ولحسن الحظ، كانت هناك بعض الرؤوس المفكّرة من قيادات البلاد التي أدركت الخطر الـذي يحوم بقطاع الصناعات التقليدية وَالذي قد يهدّدها بالزوال والانقراض. وَعلى هذا الأساس قامت الدولة بجملة من الإجراءات التنظيمية من

---

1 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان : الحاج محمد بـن رمضـان شاوش، ص 323.

أهمّها إصدار النصوص التشريعية التي من شأنها هيكلة هذا القطاع وَضبطه.

ومن هذه النصوص القانون 96/01 الذي سمح بتأسيس عشرين (20) غرفة للصناعات التقليدية والحرف عبر المناطق الجغرافية الجزائرية التي تسيطر فيها الصناعة التقليدية، إذْ أصبحت هذه الغرف "تتمتّع بصلاحيات اعتماد ومراقبة النشاطات التقليدية، مع العلم أنّ هذا الدور كان في السابق من اختصاص المجلس الشعبي البلدي "[1].

كما سمح المرسوم 92/12 قبل ذلك بإنشاء، وَتحت وصاية الوزارة المكلّفة بالصناعة التقليدية، الغرفة الوطنية للصناعات التقليدية للتنسيق بين كافة الغرف الجهوية. ومن المهام الأساسية لهذه الوكالة الوطنية حماية كل ممارسة للصناعة التقليدية وتطويرها وترقيتها، كما أنّها تمتلك امتيازات أخرى تكمن في ترويج وتسويق المنتوجات التقليدية في الأسواق المحلية والدولية.

وَسمح هذا الجهاز التنظيمي وَالتشريعي بـــ :

- توضيح وتحديد وكذا الكيفيات التطبيقية والقانونية لممارسة أي صناعة تقليدية.
- تحديد أنماط التنظيم القانوني والاقتصادي للصناعات التقليدية.
- خلق أجهزة تسيير ومراقبة قطاع الصناعات التقليدية، وأعني بذلك غرفة

1 Dossier de presse : 7ème Salon National de l'artisanat traditionnel, p. 17

الصناعات التقليدية والحرف)

– وضع سياسة تحفيزية للصناعات التقليدية من الناحية الاقتصادية (جباية)، ومن الناحية النوعية (ضبط الأسعار، والعلامة التجارية).

وقد جُمعت كلّ هذه النقاط في مَجْمع للنصوص التشريعية والتنظيمية التي تحكم قطاع الصناعة التقليدية ونُشر في شهر فيفري 1999.

وإلى جانب هذه الإجراءات التشريعية، قامت الهيئات المشرفة على هذا القطاع بإدراج بعض الصناعات التقليدية ضمن برامجِ مراكزِ ومَعـاهد التكوين المهني، وكلّ أمل في أن يكون هذا الإجراء حافزا على انتعاشه من جهة، والحَدِّ من مشكل ديمومة ممارسة الصناعات التقليدية وبقائها من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أنّه يوجد بمدينة تلمسان عدّة مراكز للتكوين المهني، اثنان منها فقط مخصّصان للتكوين في ميدان الصناعات التقليدية وهما :

1– مركز التكوين المهني " الحاج داودي " : الذي تُدرّس بعض أصناف الصناعة التقليدية، ومَن بينها صناعة الأثاث المنزلي والنقش على الخشب والخياطة التقليدية والطرز والطلاء على الحرير والصناعة الجلدية[1] التي فقَدت أهميّتها على مستوى المركز وذلك بعد وفاة المشرف عليها، صاحب الصنعة. وهي اليوم تُدرّس من طرف أحد تلامذته لفئة من الشباب المُعَاق،

1 زيارة ميدانية بتاريخ 2002/02/25.

الذين يقومون بصنع بعض النماذج حسب الطلبيات، لأنّ منتوج مراكز التكوين المهني أصبح في الوقت الراهن يُباع لتوفير مداخيل إضافية.

2- القرية الحرفية : هي كذلك تختصّ بتكوين حرفيين مبتدئين في عدّة نشاطات تقليدية، إلاّ أنّني لم أجد أيّ أثر للصناعة الجلدية، فالسيّد حليمي حبيب الحرفيّ الذي كان يسهر على تدريس هذه الحرفة غادر المركز لأنّه لم يلقَ المساعدة الكافية، وهو الآن يشتغل في دكّان صغير لحسابه.

3- وقد دُعّمت المدينة في الآونة الأخيرة بمعهد خاص للصناعات التقليدية، ولكنّه في طريق الإنجاز وَالتجهيز.

والملفت للانتباه أنّه يتخرّج سنويا من هذه المراكز العديد من المتكوّنين بشهادات تؤهّلهم لممارسة الحرفة التي يختصون فيها، ولكنّ الحقيقة المرّة التي لا يتقبّلها أحد وَهي أنّ الكثير من هؤلاء الحرفيين الجُدد – إن لم نقل كلّهم – تعترضهم عدّة عُقبات لتحقيق مُبتغاهم؛ فهم يجدون أنفسهم يتخبّطون في دوامة من المشاكل أغلبها مادية. ولعل السبب في ذلك يرجع لكونهم ينتمون في معظمهم إلى الطبقة الفقيرة من المجتمع وتنقصهم الإمكانيات وبخاصة المادية، الأمر الذي يَحُول بينهم وَ بَيْنَ إقامة مشروع حرفي ناجح يُبْعدهم عن شبح البطالة.

وإلى جانب مراكز التكوين، توجد بمدينة تلمسان مديرية للسياحة وَالصناعة التقليدية متواجدة على مستوى مقرّ الولاية، وهي تحاول بكلّ ما تملكه مـــن إمكانيات أن تخـــرج هذا القطاع من الوضعية التي هو عليها. وَالغريب في

الأمر أنّني اتّصلت – لمرات عديدة – بمسؤولي هذه المديرية في محاولة لجلب المزيد من المعلومات لإثراء بحثي؛ إلاّ أنّني لم أتمكّن من ذلك بحجّة أنّها لا يتوفر لديها وثائق، فلعلّ اهتمامها الكبير بالجانب السياحي قد أنساها قطاع الصناعة التقليدية.

كما يتواجد بتلمسان الغرفة الجهوية للصناعات التقليدية والحرف التي تقوم هي أيضا بتأطير ومراقبة قطاع النشاط التقليدي من خلال تسجيل الحرفيين ومتابعتهم. وقد وضع مسؤولو هذه الغرفة تحت تصرّف هؤلاء الحرفيين قاعة كبيرة تسمح لهم بعرض منتوجاتهم على أن تتكفّل ببيع هذه المنتوجات بأثمان من تحديدها، الشيء الذي يجلب لها بعضا من المداخيل؛ لأنّ هذه الغرف تتمتّع بالاستقلالية المالية والمعنوية.

أمّا فيما يخص الجمعيات المحلية التي تهتم بالنشاطات التقليدية، فيوجد بالمدينة جمعية واحدة فقط، مَقرّها بدار الشباب العقيد لطفي وتَدعى "جمعية أصالة للفنون التقليدية"، وهي تبذل قصارى جهدها – رغم نقص الإمكانيات – في النهوض بكلّ ما له صلة بالثقافة الشعبية وتقاليد المدينة، وهذا رغبة منها في إعطاء الجيل الجديد من شباب المدينة دَوْرَ المحافظة على هذا التراث وتطويره، وبالتالي الحفاظ على أصالته وانتمائـــه.

وعلى هذا الأساس، غيّرت الدولة من رؤيتها اتّجاه قطاع الصناعات

التقليدية؛ حيث أولته عناية وَاهتمام ليس فقط بسبب ما يوفّره لأصحابه من ارتباط تاريخي وثقافي بماضيهم ولكن لدوره الاقتصادي وَالتنموي وَخلق الفرص الوظيفية، وَقد عبّر عن هذه الفكرة الوزير المكلّف بهذا القطاع سنة 1994 بقوله " وهكذا قد ثبتت مكانة الصناعة التقليدية كقطاع بإمكانه المساهمة فعليا في خلق الثروات وَامتصاص البطالة وَ رفع إيرادات الصادرات خارج المحروقات "[1].

اذلك ليس غريبا أن تُفرد المنظّمة العربية للتربية وَالثقافة وَالعلوم دراسة لهذا النوع من الصناعات أصدرتها سنة 1995 بعنوان "الخطة القومية للنهوض بالصناعات التقليدية في الوطن العربي" أكّدت فيها على أهمية الصناعات التقليدية وَضرورة العناية بها، وَتوصّلت فيها إلى أنّ هذه الصناعات رغم أهميّتها مَا زالت تَحتلّ موقعا ثانويا في الكثير من البلدان العربية وأنّ طاقات العاملين وَإمكانياتهم في هذا المجال لمْ تُستغل الاستغلال الأمثل[2].

وَعلى الرغم من كلّ الجهود التي تبذلها الجهات الرسمية من أجل النهوض بالصناعة التقليدية، إلاّ أنّها تشهد في السنوات الأخيرة نوعا من الركود الذي مسّ الكثير من الأنشطة، ولعلّ ذلك يرجع إلى قلّة الإقبال على شراء منتوجاتها لعدم

---

1 **Journée d'étude sur l'artisanat traditionnel : cummunication de monsieur le ministre du tourisme et de l'artisanat, Sidi-Fredj, 15.11.1994.**

2 ينظر : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الخطة القومية للنهوض بالصناعات التقليدية في الوطن العربي، تونس، ص 12.

الحاجة إلى مثل هذه الأشياء التي تغيرت مع الزمن. وَفي المقابلَ وَجدتُ بأنّ كلّ الحرفيين الذين التقيت بهم مستاؤون من الوضعية التي آلت إليها الصناعات التقليدية، حتّى أنّ البعض منهم يُشير إلى أنّ أبناءه لم يتعلّموا هذه الحرفة منه، وَذلك لعدم رغبتهم ولعدم اقتناعهم بجدواها، فأحدهم يعمل مُوظفا وَالآخر طالبا في الجامعة.

وَلا غرابة في وجود بعض من الحرفيين الذين لا يزالون متمسّكين بحرفهم على الرغم من أنّها لم تعد ذات مردود مادي، فهم يعانون من مشاكل عديدة أكثرها مادية. وَقَدْ يرجع سبب بقائهم في ممارسة إحدى هذه الصناعات إلى سببين اثنين :

1- طغيان الطابع الروحي العاطفي؛ إذ أنّ الكثير من الحرفيين قد ورثوا صنعتهم من آبائهم، وَمن غير المعقول أن يتخلّى الابن عن الإرث الذي تركه أبوه، حتى أنّ بعض العائلات التلمسانية ذات الأصل الأندلسي " تُعرف بِنسبتها إلى حرفة من الحرف التي كانت تزاولها في ذلك العهد كفخّار وحصّار وَسقّال وبنّاي وَهدّام ونقّاش وَنجّار إلى آخره "[1].

2- طغيان الطابع المعرفي، حيث أنّ معظم الحرفيين ليست لهم دراية بتخصّصات أو مهن أخرى غير الحرفة التي يمتهنونها، ولهذا يكون التخلي عنها

---

1 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان: الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 401.

أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا.

2- أهمّ الصناعات التقليدية في تلمسان :

حظيت تلمسان بسمعة كبيرة وشهرة عالمية لسنوات عديدة لِما كانت تتمتّع به من صناعات تقليدية على اختلاف أنواعها، هذه الأخيرة كانت وراء ازدهار وَانتعاش المدينة لِحقب طويلة، الأمر الذي جعل الحرفي يحتلّ مكانة محترمة في المجتمع التلمساني. وَمن أهمّ هذه الصناعات :

الصناعة النحاسية :

لقد تركت كلّ الشعوب القديمة والحديثة العديد من التحف المصنوعة من النحاس؛ وَعلى وجه الخصوص المشارقة من خلال ما صنعوه من أواني وأدوات مثل الأنابيق[1] وَالأباريق[2].

وَتعدّ هذه الصناعة من إحدى الحرف العريقة التي عرفتها الجزائر منذ القدم، فهي ذات جذور بعيدة في تاريخ البلاد، حيث " أنّ وجود الحرفيين النحاسيين في الجزائر يعود إلى العصور الوسطى"[3]. وأهمّ المدن التي اشتهرت بهذه الصناعة قسنطية وتلمسان.

---

1 مفردها إنبيق وهو أداة تستعمل لتقطير العطور، تتكوّن من قدرة ومقطرة.

2 **Voir : La composition décorative : Henri MAYEUX, P. 208.**

3 الصناعات التقليدية الجزائرية : وزارة السياحة والصناعات التقليدية، مديرية الصناعات التقليدية، المؤسسة الوطنية للاتّصال والنشر والإشهار، الجزائر، أفريل 1998، ص 25.

يعود تاريخ وجود هذه الصناعة في مدينة تلمسان إلى عهد الموحدين، حيث كان لحكّامهم عناية كبيرة بمختلف الصناعات. وقد نلمس ذلك من خلال الأواني والأدوات النحاسية التي كانت تصنع بالمدينة والتي ما زال يحافظ عليها بعض التجار بمحلاّتهم[1] والعائلات بمنَازلهم. وكانت هذه الصناعة راسخة في بعض الأسر التلمسانية تتناقلها من جيل لآخر محافظة بذلك على تقنيات الصنع القديمة، فقد " ترك النحّاس المشهور بالمشور[2] محمد بن قلفاط لابنه عثمان إرثا فنيا في غاية من الدقّة "[3]، ولكن هذه الحرفة قد اندثرت بذهاب أصحابها.

وقد شهدت هذه الصناعة بالمدينة تطوّرا كبيرا عبر مرور الأزمنة، ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أنّ كلّ المصنوعات النحاسية، حتّى تلك التي كانت تستعمل في الأغراض المنزلية اليومية، قد عُنيت باهتمام أهالي المنطقة لما تتميّز به من إتقان وجودة وخاصة الزخارف التي زادتها جمالا، فالتلمسانيون مازالوا يستعملون – إلى أيّامنا – هذه الأواني والأدوات في التجميل الداخلي لمنازلهم.

والمنتوجات النحاسية التي كانت تُصنع بالمدينة هي نفسها التي صنعها الحرفي بالجزائر العاصمة وقسنطية، ولكن تلمسان تميّزت عن غيرها من المدن

---

1 زيارة قمت بها لمحلّ السيد بن سليمان الكائن بشارع الاستقلال.

2 المشور : المدينة التي ابتناها الزيانيون يوم كانت تدعى تلمسان "تاجرارت"

3 TLEMCEN : au passé rapproché 1937 – 1962; Edition Gandini; Avril 1997; P. 71.

بصناعة "الشمعدان"[1]، وَالثريات النحاسية ذات الزخارف النباتية، وَسنادات الكتب[2] التي كانت تستعمل في المساجد. إلى جانب هذا، هناك الأطباق على اختلاف أحجامها، فقد وَصل قطر الكبيرة منها إلى مترين، حيث أنّها تُوضع في الغالب على دعامات من الخشب مزينة بزخارف نباتية أو هندسية، وهي تستعمل بالدرجة الأولى في الأعراس والمناسبات. كما أنّ تلمسان اشتهرت بصناعة "المقرعة"، إذْ أنّها كانت تعلّق على مداخل أبواب المنازل، خاصة المنازل التركية القديمة.

أواني نحاسية خاصة باحتواء الماء

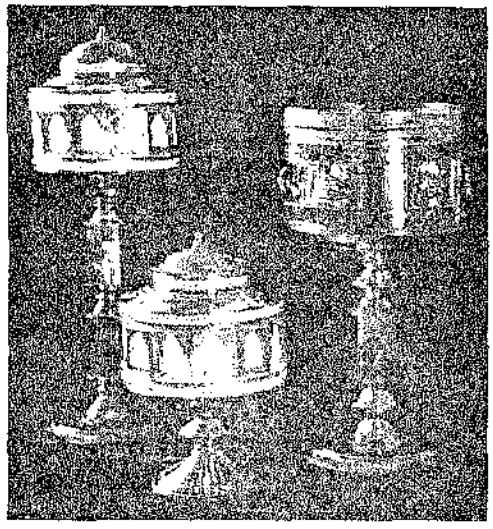

ثريات خاصة باحتواء نحاسية

1 قطع نحاسية مربّعة الشكل، يعلوها هرم مزخرف بزجاجيات مطرّقة.

2 وهي أداة على شكل (×) بحيث يوضع على الجزء العلوي منها الكتاب، من دون أن يمسّه القارئ.

وهذه مجموعة أخرى من الأواني النحاسية التي كان استعمالها شائعا في أوساط العائلات التلمسانية.

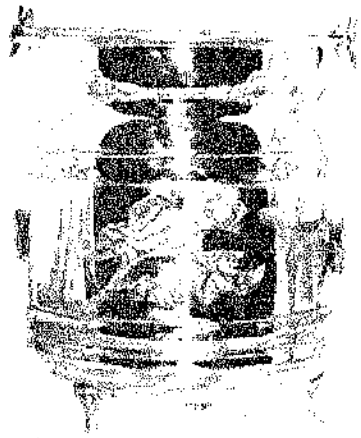

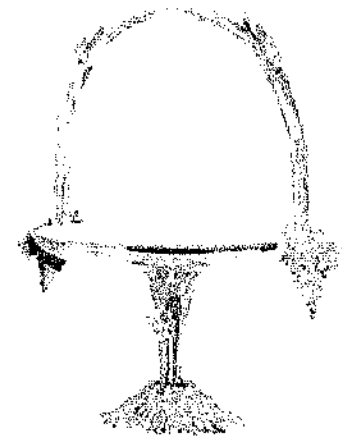

ولكنّ المؤسف، وهو أنّ هذه الصناعة لم يَعُدْ لها أثر في المدينة، فكلّ المصنوعات النحاسية المعروضة بالمحلاّت المتخصّصة في بيع المنتوج التقليدي يجلبها أصحابها من المدن التي تزال تحافظ على هذه الحرفة كقسنطينة والجزائر العاصمة[1].

ولعلّ السبب في اندثارها يرجع أساسا إلى غلاء معدن النحاس، ثم إلى نقص فرص بيع هذا المنتوج. فلا غرابة في أن يهجر الحرفي البسيط هذه الصناعة،

1 مقابلة مع السيّد بن سليمان تاجر متخصّص في بيع السلع التقليدية.

فهو يدرك تماما بأنّه لا يمكنه أن يغامر بصنع أواني وأدوات تطول مدّة إنجازها من جهة، وتطول مدّة بيعها من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أنّ مديرية التكوين المهني والتمهين للمدينة، في محاولة للنهوض بهذه الحرفة، قامت بإدراجها ضمن برامج التكوين لأحد المراكز التكوينية، لكن ذلك لم يدمْ طويلا، لأنّ المادة الأولية كلّفت الإدارة أعباء مالية كبيرة أرغمتها على التخلّي عنها.

اللباس التقليدي :

ممّا لاشكّ فيه أنّ طريقة اللّبس على مرّ العصور هي انعكاس لمدى التطوّر الذي لحقته الحضارات والشعوب، فالزخارف التي تُنسج على اللّباس مثلا قد تعطينا فكرة واضحة عن عادات وتقاليد بعض المجتمعات.

ففي الجزائر، تطوّر اللّباس بشكل طبيعي مارا بمراحل عديدة تشكّل في حقيقتها المراحل المختلفة التي عاشتها من خلال الاجتياحات الاستعمارية التي عرفتها إفريقيا الشمالية[1]. ولكنّ هذا لم يمنع بأن يكون لكلّ منطقة جغرافية من الجزائر لباس خاص بها، نذكر على سبيل المثال : القسنطينية وَ الشاوية، والقبائلية، وهي من الألبسة التقليدية المعروفة في بلادنا.

وقد نَالَتْ تلمسان حظّها من هذا التطوّر، فاللّباس التقليدي التلمساني ذو

1 ينظر " الألبسة " : مقال منشور على شبكة الأنترنت باللغة الفرنسية، دون مؤلّف.

شهرة كبيرة في الجزائر؛ لأنّه يمتاز بالإتقان وَالجودة ثمّ بالتنوّع في استعمال الزخارف النباتية التي يدخل في تشكيلها الخيط الذهبي والفضي. ففي القرن السادس عشر مثلا " كان المسلمون وَاليهود، على اختلاف تقاليدهم كانوا يلبسون هذه الملبوسات في أيّام الأفراح : الصدريات ذات اللون الرمّاني وَالمطروزة بالخيط الذهبي، والقفطان والشواشي المخروطية "[1].

والألبسة التقليدية التي تشتهر بها مدينة تلمسان هي في حقيقة الأمر من اختصاص النساء، فهي على أنواع وأشكال عديدة. وَمن أهمّها :

* القفطان[2] : وَتنفرد به المدينة دون غيرها من المدن الجزائرية. يُخاطُ هذا اللباس من القطيفة[3] وهو قماش مخمليّ، بحيث يُطرز بالخيط الذهبي الذي تشكّله أيادي النساء الماهرات في زخارف في غاية من الدقّة والجمال. وهذا اللّباس خاص بالعروس ترتديه يوم زفافها.

1 TLEMCEN : Au passé rapproché 1937 – 1962; P. 72.

2 يقال القفطان أو القرفطان. وهي كلمة تركية.

3 من الأقمشة المخملية الغالية الثمن.

عروس يوم زفافها وهي
لابسة القفطان

* القسنطينية : وَهو لباس فاخر، أصله من مدينة قسنيطية، يصنع من القطيفة ويُطرز أيضا بالخيط الذهبي. وَهو عبارة عن لباس طويل يصل إلى أسفل الأرجل على العكس من القفطان. وحسب بعض النساء التلمسانيات المحترفات لمهنة الخياطة، فإنّ القسنطينية لم تعدْ تحظى بالاهتمام نفسه الذي كانت تعرفه في سنوات قليلة مضت.

* الرِّداء : وهو من خصوصيات المدينة، يُنسج من قماش شفاف وَخفيف جدّا، ويشبه كثيرا "الشاوية[1]"، كما أنّه من الملابس الخاصة بالأفراح والمناسبات.

* الكَرَاكُو : وَهو في الأصل من الجزائر العاصمة، ولأناقته وَجَماله استعملته

1 لباس تشتهر به منطقة الأوراس.

النساء التلمسانيات، وأصبح من الألبسة الشائعة في المدينة منذ زمن بعيد. يتكوّن من جزء علوي (المعطف) يُصنع في الغالب من القطيفة ويُطرز بالخيط الذهبي، وجزء سفلي (السروال) يصنع من قماش حريري يدعى (المَنْسُوج) نسبة للآلة التي تختص بصنعه وهي (المَنْسَج).

* ألبسة أخرى : مثل "البلوزة[1]" كما تسمّيها النساء التلمسانيات، وَهي كثيرة الاستعمال بالمدينة، حيث أنّ أهميّتها تكمن في مقدار ما يدخل في صنعها من سماق وعقيق وَما شابه ذلك، ولهذا نجد منها نوعين الخفيفة والثقيلة. وقد شهد هذا اللباس تطوّرا كبيرا ومستمرا نتيجة التقدّم الذي عرفته الصناعة النسيجية.

وتستعمل التلمسانيات ألبسة أخرى ذات الأصل المغربي، لكنّها أصبحت منذ زمن بعيد من تقاليد المدينة، فهنّ يرتدينها في الأفراح والولائم. ومن بينها " البَدْعِيّة " وَ " الفُوقِية " وَ " التَحتِية "، وقد يرجع السبب في ذلك إلى خِفَّتِها أو تأثرا بتقاليد النساء المغربية باعتبار أنّ مدينة وَجْدة المغربية تبعد عن تلمسان بأقلّ من مائة كيلومتر.

الصناعة النسيجية :

تعدّ حياكة النسيج واحدة من أهمّ الصناعات التقليدية التي عرفها الإنسان،

1. وهي كلمة ذات أصل فرنسي **Blouse** ولا يُقصد بها اللباس المعروف عندنا.

منذ عهود بعيد، فجذورها تضرب بعيدا في أعماق التاريخ. وقد احتلّت بفعل أصالتها وَأهميتها مكانة مرموقة في كلّ المجتمعات. واستطاعت هذه الحرفة أن تلبّي الكثير من حاجيات هذا الإنسان من الملبوسات وَغيرها من الأغراض التي تدخل في صناعتها الخيوط النسيجية.

وكانت لعرب الجاهلية دراية بصناعة النسيج بكل ما تحمله من خبايا وَأسرار، فقد عرفوا كيف يتحكّمون فيها، الشيء الذي جعلهم " يصنعون من الأصواف وَالأوبار وَالأشعار أثاثا من ملابس وَبسط وَسجاجيد وَغيره "[1] لقوله تعالى ﴿ **وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ** ﴾[2]، وَخاصة الخيام لأنّهم كانوا في الغالب من البدو الرُحّل.

وَيذهب ابن خلدون إلى أبعد من ذلك، فهو يقرّر بأنّ هذه الصناعة قديمة في الخليقة، ولقدمها تَنْسبها العامة إلى إدريس عليه السلام، وَهو أقدم الأنبياء[3].

وتلمسان إحدى المدن الجزائرية التي عرفت هذه الصناعة منذ القدم على اختلاف منتوجاتها. فبالإضافة لكونها "مركزا تجاريا، كانت معروفة كمركز إنتاجي. وقد كان للصناعة النسيجية دور كبير في اكستابها تلك السمعة كبيرة،

---

1 الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي : واضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ-1981م، ص 34.

2 سورة النحل، الآية 80.

3 ينظر : المقدّمة، ج 2، ص 496.

حيث كانت تنتج معاملها أقمشة صوفية الأكثر خفّة والأكثر متانة "[1].

وفي القرن الرابع عشر " يخبرنا ابن خلدون بأنّ حايك[2] وبَرنوس تلمسان كانا مطلوبين في الأسواق الغربية والمشرقية "[3]. وقد وجد الفرنسيون عند دخولهم إلى تلمسان أكثر من خمسمائة معمل للنسيج[4]. ولكن في سنة 1913 أقرّ كلّ من ألْفَرَدْ بَالْ A. BEL و P. Ricard " بأنّ المناول[5] الأفقية المُنتجة للأغطية والألبسة ذات النعومة الشديدة لم يكن عددها يفوق المائة إلاّ بقليل "[6].

وفي السنوات الأولى من استقلال الجزائر، شهدت هذه الصناعة انتعاشا كبيرا على المستوى الوطني وبتلمسان على وجه الخصوص؛ فالمناول " قد ارتفع عددها من اثنين وثلاثين في عام 1968 إلى أزيد من ثماني مائة في عام 1980"[7] مختصة في صنع كلّ المنتوجات النسيجية.

ولكن في أيّامنا هذه، فإنّ المتجوّل في مدينة تلمسان يجد صعوبة في

---

1 **TLEMCEN: Georges Marçais; Librairie Renouard; H. Laureus ; Editeur ; 1950 ; P 93.**

2 لحاف أبيض يستر كامل جسد المرأة، وتلبسه التلمسانيات عند خروجها من البيت.

3 المرجع نفسه، ص 496.

4 تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك بن محمد الهيلالي الميلي، ج3، ص 316.

5 المنوال هو آلة حياكة النسيج، وهو عبارة عن آلة يدوية معقّدة التركيب يدخل في تركيبها الألواح الخشبية وبعض الخيوط الدقيقة والحبال. وهو نوعان : أفقي وعمودي. الأول خاص بالرجال، والثاني بالنساء.

6 **Le travail de la laine à Tlemcen :**

7 صناعة المضفرات والمنسوجات الحلفاوية بالمنطقة السهبية من دائرة سبدو بولاية تلمسان : محمد تروزين، المعهد الوطني العالي للثقافة الشعبية، تلمسان، 1993، ص 9.

العثور على معامل لنسّاجين تقليديين؛ فَعددهم قد تناقص بشكل ملفت للانتباه، وَالقلّة المتبقّية منهم منتشرون هنا و هناك في الأزقة الضيّقة للمدينة[1]. ولعل السبب في اختفاء الكثير منهم يرجع أساسا إلى التطوّر التكنولوجي الذي عرفته وسائل الإنتاج بظهور الآلات الميكانيكية وَالخيوط الاصطناعية، وكذا الاستيراد المكثف لكلّ المنتوجات النسيجية، إلى جانب تأثر المجتمع التلمساني بالنمط المعيشي الغَرْبِي في المأكل والسكن وخاصة في الملبس (الموضة) متناسيا بذلك أصالته وانتماءه.

وَعلى الرغم من ذلك، لا يزال بعض الحرفيين ينشطون رغم كلّ المشاكل التي تصادفهم كمشكل تسويق منتوجهم. هذا المنتوج الذي يأتي عن طريق الطلب المُسْبَق.

وَمن أهمّ المنتوجات التي يصنعها النسّاجون التلمسانيون الذين مازالوا يمتهنون هذه الحرفة : الأغطية الصوفية مثل الحنابل وَالقطنية وَ "البُورَابَحْ"؛ إذ أنّ المدينة تَنْفرد بصنع نَوْعيْن منه و هما "البَطَّانية" و "الحَشَايْشِي". إلاّ أنّ الطلب على "البورابح" قلّ كثيرا؛ لأنّه لمْ يعدْ من المفروشات الضرورية لجهاز العروس. وهناك الجلابيب وَالبرانس والمنشفات، وممسحات الأرض، والفوطات إلى غير

1 مقابلة مع أحد النساجين المعروفين في تلمسان "الحاج عباس حمو "، بتاريخ 15 ديسمبر 2001.

ذلك. والأهم من ذلك "الحَايك" التلمساني الذي نال شهرة كبيرة في الجزائر كلّها، فهو على نوعين : حايكْ المرَامّ[1] " وَ هو مصنوع من حَرِير دودة القزّ، وَالنوع الثاني مصنوع من الخيوط الاصطناعية وهو أقلّ جودة وَثَمَنًا. وتجدر الإشارة إلى أنّ النساء التلمسانيات لم تَعُد تستعمل "الحايك" كثيرا، فالبعض منهنّ يستعمل لباسا يغلب عليه الطابع الأجنبي، والبعض الآخر يلبس " الجَلاَّبَة " تأثرا وَتقليدًا للنساء المغربيات.

وعلى أيّة حال، فإنّ التطوّر التكنولوجي والحضاري الذي عرفه المجتمع التلمساني لمْ يقضِ على هذه الحرفة بالكامل، بلْ لا يزال إلى يومنا هذا بعض الحرفيين الخواص الذين يحافظون عليها بكلّ أمانة، على الرغم من اقتصارهم على إنتاج بعض المصنوعات فقط.

صناعة الزرابي :

من بين الصناعات التقليدية العديدة التي تدخل ضمن المنسوجات صناعة الزرابي. فقد احتلّ هذا المنتوج مكانة هامّة في كلّ المجتمعات بسبب طول مدة إنجازه من جهة، وإلى غلائه من جهة أخرى.

---

1 المرَامّ : وهي المنوال الأفقي الخاص بالنساء. وهذا ما يدلّ على أنّ "الحايك" كان يُصنع من طرف الرجال.

ولمّا أصبحت زينة البيوت من الضروريات، كانت الزربية أكثر المفروشات استعمالا؛ الأمر الذي أدّى بالحرفيين إلى تحسينها والتفنّن في صنعها، فأضافوا إليها الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية. وهكذا ظهرت أنواع عديدة تختلف من قطر لآخر، حتّى أصبحت من الدلالات المميّزة لكل مدينة ولكل قطر.

والجزائر قطر من هذه الأقطار التي عَرَفَت كيف تحافظ على هذه الصناعة، حيث أنّها منتشرة في العديد من المدن وتُنسب إليها، ونذكر منها : زربية غرداية وبني يزقن، وزربية النمامشة (تبسة وخنشلة)، ومعديد (مسيلة وبرج بوعريريج)، وزربية قرقور (سطيف).

أمّا عن تلمسان، فقد عَرفت هي الأخرى هذا النوع من الصناعة منذ عهود قديمة، فـ "يحيى ابن خلدون وليون الإفريقي يُخبِرُنَا بأنّه في القرنين الرابع عشر والسادس عشر كانت صناعة الزرابي نشاطا ذو أهمية بالغة لدى سكان المدينة"[1].

ولكن بمجيء الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، حدث تطوّر تكنولوجيّ كبير في وسائل الإنتاج، فظهرت الآلات الميكانيكية السريعة التي طغت على الصناعة النسيجية والزرابي على وجه الخصوص.

وهكذا كان لظهور المعامل المُمكْننة في تلمسان أثر سلبيّ على هذه

1 TLEMCEN : au passé rapproché 1937 – 1962; P. 69.

الصناعة؛ حيث أنّ سرعة الإنتاج أثّرت على نوعية وجودة الزربية، الأمر الذي أدّى إلى ضعف السوق التلمسانية من جهة، وإلى غلق عدد كبير من الورشات، فكان لهذا الوضع انعكاس سلبي على الحياة الاجتماعية للمدينة[1]. فكانت على لسان التلمسانيين عبارة يكرّرونها في كلّ الأوقات وهي " إذا كانت صناعة الزرابي بخير، فكلّ شيء على ما يرام"[2].

ولكن ابتداء من سنة 1947 أخذت الجهات الرسمية الساهرة على قطاع الصناعة النسيجية بزمام الأمور، وأحدثت عدّة تدابير من شأنها دفْعُ عجلة الإنتاج والتسويق. فأهمّ شيء قامت به هو إحداث العلامة التجارية، حيث أنّ اكتسابها كان من خلال احترام طريقة الصنع التي تكمن في إدخال 2500 غرزة في المتر المربّع، وكذا فرض بعض الرسوم خاصة على صناعة الزرابي ذات الجودة العالية. ولكنّ هذا أغضب كثيرا الحرفيين الصغار[3].

ومن هنا بدأ الحياة التجارية في المدينة تستقرّ نظرا للنوعية الجيدة التي توصّلت إليها الزربية التلمسانية؛ إذ أنّها كانت تُصنع من الصوف الرفيعة و بالغرزة اليدوية (mains nouées). وكانت تسوّق في عدد من البلدان منها

1 المرجع السابق، ص 69.

2 نفسه، ص 70.

3 TLEMCEN : au passé rapproché 1937 – 1962; P. 70.

الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وإيطاليا وخاصة ألمانيا.

ومن هذه الفترة، شهدت تلمسان ظهور عدد كبير من المعامل، كان لها أثر إيجابي على اقتصاد المدينة؛ فـ " قفز إنتاج الزرابي المراقبة من أقل من مائة ألف متر مربّع في سنة 1965 إلى أربعمائة واثنين وسبعين ألف متر مربّع في سنة 1971، وزادت نقاط الإنتاج التي مسّها الجرد عن مائة وعشرين "[1].

ولكن لم يدم هذا الانتعاش طويلا، فابتداء من هذه السنة – أي 1971 – شهد صناعة الزربية تدهورا كبيرا لم تعرفه من قبل، حيث انخفض انتاجها من 398561 متر مربّع إلى 44347 متر مربّع سنة 1978[2]. وقد كان لهذا الانخفاض آثار سلبية على مناصب العمل والحياة الاقتصادية للمدينة. وقد أدى ذلك إلى " هجرة بعض صنّاع الزربية إلى المغرب؛ حيث وجدوا مزايا وتسهيلات افتقدوها في الجزائر من تموين بالمواد الأولية وقروض واستيراد وتصدير "[3].

وعلى أيّة حال، فإنّ الزربية التلمسانية تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

- زرابي الجدران (المعلّقات)

---

1 صناعة المضفرات والمنسوجات الحلفاوية بالمنقطة السهبية من دائرة سبدو بولاية تلمسان : محمد تروزين، ص 8.

2 **Monographie de la wilaya TLEMCEN : Wilaya de Tlemcen ; Service de l'Animation et de la Planification Economique ; Mai 1980 ; P. 265.**

3 صناعة المضفرات والمنسوجات الحلفاوية بالمنقطة السهبية من دائرة سبدو بولاية تلمسان : محمد تروزين، ص 18.

- الزرابي التي تُفرش بها أراضي الغرف والممرّات.

- الزرابي التي تُزيّن أراضي الغرف وليس للسير عليها.

وهناك أنواع أخرى صغيرة منها زرابي الصلاة والأغطية التي تستعمل للوسائد والمقاعد وزرابي للسروج وغيرها.

وعلى الرغم من هذا الإهمال والتهميش الذي لحق صناعة الزربية في تلمسان، إلاّ أنّه لا تزال بعض المعَامِل، - لا يفوق عددها الخمسة[1] - قائمةً يَسْهَر أصحابُها علَى ممارسة هذه الصناعة. ومِن بين العائلات التي ما زالت تهتم بإنتاج الزربية : عائلة بريكسي وَ عائلة بلعربي.

ومن خلال هذا العرض، نَلْمس بأنّ قطاع الصناعات التقليدية في مدينة تعتريه اختلالات كثيرة، فهو يشهد تطوّرا في بعض المجالات وتدهورا في البعض الآخر، إلى جانب اندثار حرف أخرى كصناعة القرن وَصناعة النحاس مثلا.

وفي غضون " العشريتين الماضتين، فقَدَت الصناعات التقليدية أهميّتها، وبالأخص منذ سنة 1978، السنة التي توجّهت فيها الأنظار نحو العالم الخارجي، فكان التموين بالمواد الأولية غير مضمون بالكميات اللازمة وبالنوعية المطلوبة. وهكذا هُمّشت الصناعات التقليدية عِوض أن تُدمج ضمن الاقتصاد الحديث"[2]،

---

1 مقابلة مع أحد المسؤولين في مديرية الصناعة التقليدية والحرف لولاية تلمسان، يوم 2002/03/18

2 **Monographie de la wilaya TLEMCEN : Wilaya de Tlemcen; Direction de la planification et de l'Aménagement du Territoire; Juin 2001; P. 130.**

وقد انعكس هذا على الحياة الاجتماعية للحرفيين ممّا أدّى بالكثير منهم إلى هجرة هذه حرفته. ولعلّ ارتفاع عدد المشطوبين من السجل التجاري لدليل واضح على ذلك، فقد قفز العدد من 125 سنة 1997 إلى 332 سنة 1999.[1]

ولعلّ السبب في ذلك يرجع أساسا إلى :

- نقص اليد المؤهّلة التي بَاتَتْ تختفي من يوم إلى آخر.
- عزوف شبابنا عن ممارسة الصناعات التقليدية لإيمانهم بعدم جدواها.
- رفض البنوك والهيئات المالية من تقديم القروض للحرفيين الراغبين في إحداث مشروع حرفي.
- والأهمّ من ذلك تسويق المنتوج التقليدي الذي لم يعد يلقى الأهمية نفسها.

ومن بين الصناعات الأخرى التي كان لها حضور في المجتمع التلمساني الصناعة الجلدية وكلّ ما يرتبط بها من دباغة وصباغة. لقد عرفت تلمسان هذه الصناعة منذ القدم، فجذورها تغوص بعيدا في الماضي. ولأنّ استعمالاتها كثيرة ومتنوّعة، كان لها وجود في مختلف شرائح المجتمع.

وقد خصّصت الفصل الثاني من هذا البحث لدراستها.

---

1 المرجع السابق، ص 59.

الفصل الثاني

تمهيد :

ممّا لا شكّ فيه أنّ تاريخ استعمال الجلود يعود إلى عهود قديمة، بل إنّه يرتبط ارتباطا وثيقا ببداية الإنسانية. ولعلّ الظروف الطبيعية القاسية التي كان يعانى منها الإنسان البدائي من حرّ وبَرْد وما شابه ذلك قدْ حرّكت ذكاءه وأيقظت مهاراته الفكرية، حيث وجد لنفسه سبيلا بأنْ اتّخذ جلد الحيوان الذي يصطاده لباسا له ليقِيَ به جسمه.

فالصيد إذن، كان أولى العمليات التي قام بها الإنسان لكيْ يحافظ على أَمْنِه وعلى سلامة عائلته من الحيوانات والوحوش، وقد استعمل لحومها وأصوافها وجلودها على وجه الخصوص في حياته اليومية لأغراض نفعية.

وعلى هذا الأساس، تعدّ الصناعة الجلدية فرع من فروع الدراسات الأثرية؛ إذ أنّها مرآة صادقة تعكس حضارةَ أيّ شعب من الشعوب وتبرز ذوقَ العصر، كما تُبيّن أهمّ طبقات المجتمع التي وجدت آنذاك مع أهم العادات والتقاليد التي توارثها الأبناء عن آبائهم وأجدادهم[1].

وبمرور الأزمنة، تطوّر الإنسان وتحضّر فاهتدى إلى تربية المواشي حتى يوفّر لنفسه كميات أكبر من الجلود، وقد تأكّدت أهمية استعمال هذه المادة في

---

1 ينظر الصناعة التقليدية بمنطقة تيديكلت – صناعة الفخار والجلود نموذجا – دراسة ميدانيـــة فنيـــة إثنوغرافية : بوسليم صالح، ص 50.

المجتمعات كلّها وبصورة غير مباشرة من خلال اكتشاف الأدوات والمعدّات التي تسمح بتحويلها وتصنيعها. وهكذا أصبحت الجلود على اختلاف أنواعها ذاتَ أهميّة بالغة ومكانة مميزّة في اقتصاد العديد من الدول، الأمر الذي أدّى إلى ظهور مجالات أخرى من الإنتاج كصناعة الملابس الجلدية (الجاكيت والسراويل والقفازات والقبّعات) وكذلك الأحذية والحقائب والمحافظ. وقد استخدمت الجلود أيضا في إنتاج أصناف عديدة من الأثاث المنزلي، كالمقاعد والأرائك والمفروشات كالوسائد وغيرها.

مادة الجلد :

إنّ الجلد هو بشرة الحيوانات أو أدَمتها أو فَرْوها سواء كانت الثديية أو الزواحف أو الطيور أو الأسماك، والتي عولجت بطريقة مُحكمة تجعله صالحا للاستعمال، وتدعى هذه العملية "بالدبّاغة".

وللجلد وجهان يختلفان في السّمك؛ وجْه عُلوي يمثّل نسبة قليلة من سمك الجلد ويغطّيه الصوف أو الوبر؛ حيث أنّ وضعية الصوف على الوجه ونوعية البشرة يُعطيان لكلّ صنف من الجلود طابعه المميّز، والوجه السفلي لَحْميّ وأكثر نعومة، وهُو الجزء الأهم في الجلد؛ حيث يصل سَمكه إلى أربعة أخماس من السّمك الإجمالي.

ويَذهب البعض إلى القول بأنّ الجلد موهُوب بالحياة، شأنه في ذلك شـــأن الإنسان؛ إذ " أن الصنّاع يؤكّدون ذلك، فمن المصطلحات التقنية التي يســـتعملها الدبّاغون : الجلد يأكل، ويَشرب، ويَنام، ويَنشأ من الماء، ويُزخرف بعد نشأته"[1].

والجدير بالذكر أنّه إذا كان الجلد معالجا بطريقة مُحكمة فإنّه يعدّ واحدا من جملة المواد الطبيعية التي تَطول مدّة حياتها، ولعلّ تلك الألبسة والأواني الجلدية القديمة التي عُثر عليها في جميع أنحاء العالم كالنعال التي اكتشفت في أهرامـــات الجيزة والألبسة الجلدية التي وُجدت في مغارات باسكتلندا وغيرها لدليل واضـــح على أنّ الإنسان القديم قد استعمل الجلود وشكّل منها الكثير من الأدوات الجلدية. ومَا يؤكّد ذلك اعتراف الكاتب المسرحي Aristophane (500 سنة قبل الميلاد) بأنّ الدبّاغ كان صانعا ماهرا ومُحترفا[2].

ويجرّنا الكلام إلى الحديث عن مدينة تلمسان، فقد عرفت هذه المدينة صناعة الجلود منذ القدم، ففي القرون الوسطى وخاصة في الفترة التي حكم فيها الزيانيون كان" من جملة الصادرات إلى الخارج الحبوب والزيوت والجلود والصوف"[3]، وهذا دلـــيل على أنّ مدابغ تلمسان كان يخرج منها كميات كـــبيرة من الجلـــود تفوق

1 Les Tanneurs de MARRAKECH : D. JEMMA, Mémoires du C.R.A.P.E XIX; Imp. ZABAN, Alger ; P. 55.

2 Internet : page web : www.skunky.org

3 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان: الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 341.

احتياجاتها المحلية.

ولعلّ هذا ما أدّى إلى تحفيز الحرفيين الذين هُم على علاقة مباشرة بالجلود كالبلغاجيين مثلا على الاستقرار بالمدينة. ولأهمية هذه المادة وكثرة المهتمين بالصناعة الجلدية والمشتغلين بالدباغة وخاصة تلك الصلة الوثيقة التي تربط بين كلّ هذا الجمع من الحرفيين قد ساعد على التقائهم في مكان واحد تسْهُل من خلاله العلاقات التجارية، حيث كان مقصدا لكلّ من له اهتمام بمادة الجلد وبالمصنوعات الجلدية.

وللإشارة فقط، فقَديما كانت كلّ القوافل التجارية الآتية من البلاد البعيدة تحطّ بهذا المكان لشراء ما تحتاجه من بضائع وتبيع ما أتت به من سلع وكان يُدعى بِسوق منشر الجلد، و " كانت هذه السوق قرب جامع ابن البناء[1]، وهي تَنبئنا عن وجود ثلاثة طوائف من الصناع : الدبّاغون... والخرّازون.... والسرّاجون "[2] الذين كانوا ينتجون مصنوعات في غاية من الجودة والإتقان.

ولقد أحدث التطوّر التكنولوجي الذي صاحب الثورة الصناعية انقلابا كبيرا في كثير من مجالات الحياة وخاصة الصناعات التحويلية. فابتداء من سنة 1950 أخذت البلدان المتقدّمة في تصنيع مواد بلاستيكية تشبه الجلد في كثير من

1 لا يزال هذا المسجد قائما إلى يومنا هذا.

2 باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان: الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 328.

خصائصه، ولأنّ المنتوجات المصنوعة من الجلد الطبيعي أضحتْ غاليـــة الثمن فقد أصبح استعمال هذا البديل الصناعي أمرا حتميا؛ وهكذا لم تعدْ الجلود الطبيعية مهمّة كما كانت عليه.

أمّا تلمسان، فقد عرفت استيراد الجلد الصناعي في فترة مبكّرة من طَرف بعض الحرفيين الإسكافيين الذين استغلوا هذه الفرصة، فانصرفوا عن حرفتهم وتوجّهوا نحو المتاجرة بالجلود لتيَقّنهم من أنّ هذه النوعية من الجلود ستَلْقى رواجا كبيرا في الأسواق المحليّة والوطنية. وبالفعل، لقد كانوا صائبين في تنبّئهم، إذ أنّ معظم المنتوجات الجلدية التي تُباع في محلاّت المدينة – أي تلمسان – من أحذية وحقائب نسائية هي مصنوعة من هذا البديل الصناعي[1]، والمثير للدهشة أنّ هذه الجلود متينة وقوية، وتكاد تكون أفضل من بعض الجلود الطبيعية التي لم تأخذ حقّها مـــن الدّباغة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أنواع الجلود الصناعية عديدة من أهمّها الإيطالي المسمّى بـــ (سكاي) وهو أشهرها، ومنها (سّتار) وهو إندونيسي، وأيضا (سّتان سكاي) وهو إيطالي أيضا[2]، وكل منها له استخداماته. وقد زاد – في السنوات

1 زيارة قمت بها إلى محلات بيع الأحذية (شارع ابن خلدون).

2 مقابلة أجريتها مع أحد بائعي الجلود بتلمسان.

الأخيرة – الطلب على هذه النوعية من الجلود خاصة وأن المستهلك يريد أحذية ومنتجات جلدية تُناسب ظروفه المادية وبالتالي اتّجه التجار إلى استيراد كميّات هائلة من هذه الأنواع؛ لأنّ الإنتاج المحلّي من هذه المادة لا يغطّي احتياجات السوق سواء المحلية أو الوطنية.

كما أن انتشار الجلد الصناعي أدّى بدون شكّ إلى انتشار المصانع الصغيرة الخاصّة، فتطور الإنتاج وكثرت الورش وانخفضت الأسعار.

ولابدّ من الإشارة أيضا إلى أنّ سعر الجلود يرتكز على عدة عوامل، من أهمّها نوعية الجلد ومصدره، وتبنى أسعار جلود الضأن والماعز على القطعة، أمّا جلود الأبقار فإنها تُبنى على المساحة.

دباغة الجلد :

من المعلوم أنّ الإنسان قد استعمل منذ القدم الجلود المدبوغة لثيابه وأحذيته وكوخه الذي يأوي إليه مستخدما في ذلك أنواعا مختلفة من المواد. والدباغة " هي دبغ الإهاب بما يدبغ به، والإهاب الجلدُ من البقر والغنم والوحش ما لـم يُـدبغ[1]؛ حيث يكتسب الجلد بعد دبغه " زيادة في المقاومة وعدم التقلّص في الماء الحـار أو الأحماض الممدّدة بالماء ولا يفسد ويتعفّن في الأحوال الرطبة أو الحـارة"[2].

1 الصناعات والحرف عند العرب : واضح الصمد، ص 231.

2 دباغة الجلود وصناعة المواد المتعلّقة بها : ترجمة وإعداد جعفر طـه الهاشـمي، دار الصـفدي، دمشق، 1418 هـ – 1998م، ط1، ص 9.

لأنّ الجلود " تتألّف غالبا من مادة غروية تتأثّر بكثير من المواد كالخمائر والبكتريا والأملاح والأحماض والقلويات والزيوت والدهون والخلاصات الدباغية "[1].

وقد وُجدت حرفة الدباغة بتلمسان منذ عهود بعيدة، ويبرز ذلك من خلال ما كانت تصدّره من كميات وأنواع مختلفة من الجلود[2]، وهذا دليل على أنّ إنتاجها من هذه المادة كان يفُوق احتياجاتها المحلية. وإذا كان هذا الكمّ من الجلود يُنتَج بالمدينة، فإنّه لابدّ من تواجد الدبّاغين ودُور للدباغـــة.

وبالفعل، كان بتلمسان – في أوائل الاحتلال الفرنسي – أربعة دور للدباغـــة " واحدة بحي القصّارين بأقادير[3]، و ثانية على ضفّة واد مشتكانـــة قـــرب الريّـــاض الحمّار[4]، وثالثة بالقلعة[5]، ورَابعة بِحيْ قباصة[6] قرب مقبرة اليهود "[7].

1 المرجع نفسه، ص 9.

2 ينظر باقة السومان في التعريف بحاضرة تلمسان: الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 341.

3 أقادير : وهي تلمسان القديمة.

4 يوجد هذا الحيّ خارج باب الجياد.

5 كانت متواجدة على أرض " قراجة " وراء المسجد.

6 يوجد هذا الحيّ شمال باب القرمدين.

7 باقة السومان في التعريف بحاضرة تلمسان: الحاج محمد بن رمضان شاوش، ص 324.

لوحة إشهارية للمدبغة التي كانت موجودة بحي " القلعة "

وقد توقّفت مدبغة أقادير عن النشاط الفعلي للدباغة منذ بداية التسعينات على إثر تدهور الحالة الصحية لمالكها[1]، وليس نتيجة تغيير مجرى العيْن التي كانت توفّر الماء كما يزعم البعض[2]، فالمياه لا زالت تنساب من هذه العيْن إلى يومنا هذا[3].

و تجدر الإشارة إلى أنّه لم يبقَ من مرافق هذه المدبغة إلاّ القليل، فالزائر قد يمرّ بجانبها من دون أن يلْحظ وجودها، فالحُفَر التي كانت تُغسل وتدبغ فيها الجلود لم يعُدْ لها أيّ أثر هي الأخرى. أمّا ما تبقّى منها، فهي مجرّد بيوت قديمة

1 مالك المدبغة هو السيد بن براهيم قويدر . مقابلة أجريتها مع السيّد دالي يحيى عبد الرزاق بتاريخ 2002/03/10، عامل بالمدبغة.

2 ينظر : التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية : نقادي سيدي محمد، ص 166.

3 زيارة ميدانية قمت بها إلى عين المكان بتاريخ 2002/03/10.

منها ما هو مستعمل لتخزين الجلود الخضراء وأخرى لممارسة العمل اليومي. إنّ عدد العاملين بها – اليوم – لا يتعدّى الخمسة، ولكنّهم لا يمتهنون نشاط الدّباغة[1]. فهذه الحرفة لم يعُد لها أيّ وجود في المدينة. إنّ عمل هؤلاء الأشخاص يقتصر على جمع الجلود التي يحصلون عليها من السلخانة سواء كانت جلود غنم أو ماعز أو أبقار؛ فيقطّرونها من السوائل العالقة بها لمدة يوم أو يومين بوضعها على مصاطب أو بتعليقها، ثمّ يقومون بتمليحها للحفاظ عليها لمدّة أطول بحيث توضع على شكل طبقات. ولمّا تجتمع لديهم الكمية اللازمة من الجلود – تصل في بعض الأحيان إلى 700 قطعة – يرسلونها إلى مدينة وهران لتُصنَّع بمدبغة عصرية[2] تستخدم طريقة الدبغ الحديثة (الدّبغ بالمادة الكيميائية : الكْرُوم).

والملفت للانتباه أنّ هذه الدور الأربعة كانت متواجدة خارج المدينة، والسبب في ذلك يرجع أساسا إلى وقاية السكان من التلوّث والرائحة الكريهة التي تنبعث منها نتيجة استعمال مواد الدّباغة والصباغة (النباتية أو الكيميائية)، كما أنّها تمركزت بالجهة الشرقية من المدينة لاعتبارات مناخية، من أهمّها الرياح الغربية التي تساعد على تجفيف الجلود، وإبعاد تلك الروائح عن المدينة.

1 مقابلة أجريتها مع السيّد دالي يحيى عبد الرزاق بتاريخ 2002/03/10.

2 وهي مدبغة " بن سعدون " لأنّها الأكثر نشاطا.

وقد كان لِدُور الدّباغة في تلمسان أهميّة كبيرة ومكانة مميّزة؛ إذ أنّها كانت تُشغّل عددا هائلا من أبناء المدينة، حيث أنّه إلى " نهاية الثلاثينات من هذا القرن – أي القرن العشرين– لم تكن توجد تقريبا عائلة بتلمسان لا يعمل أحدُ أفرادها في الدباغة "[1]. وإلى جانب ذلك، كانت تمدّ السرّاج والخرّاز بالجلود و الدرّاز[2] بالأصواف، ولهذا عُرفت الدّباغة على أنّها "أمّ الصنائع" لأهميّة منتوجها من حيث استعمالاتـــه العديدة والمتنوّعة، ثمّ للأهميّة العددية لليد العاملة التي كانت تشغّلها هذه الحرفة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ " المُعلّمين[3] " من الدبّاغين وغيرهم من الحرفيين كَوّنوا لأنفسهم مجلسا داخل المدينة يهتمّ بشؤونهم ويتّخذ جميع القرارات الهامة التي تخصّ حرفة الدّباغة، وكان برأسه عضو من أعضائها يُدعى "أمين الطائفة" – و قد سبق تعريف الطائفة – وقدّ كان " آخر أمين الدبّاغين بتلمسان وذلك في الثلاثينات من هذا القرن – أي القرن العشرين – السيّد بريسكي المدعو بـــ " النْصيّص "[4]، إنّـــه كان على دراية كاملة بأخلاق ومهارات المُعلّمين والصنّاع

1 التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية: نقادي سيدي محمد، رسالة ماجستير، ص 166

2 الحرفي الذي يمتهن حرفة النسيج. والأصل أنّ الدرّاز تحريف لعبارة "دار الطّـراز" عـن طريـق الإدغام.

3 الصانع الماهر.

4 نسبة لقصر قامته.

من دباغين وخرّازين، وكـــان يحتفظ بقائمة أســـماء الحرفيين الذين يتعامل معهم، يُسجّل عليها ملاحظاته حول سلوكهم المهني والأخلاقي "[1]، وقد اتّخذ أمين الدبّاغين " فندق الرمّانة "[2] مقـــرّا له؛ حيث يلتقي بداخله كلّ الحرفيين المستعملين للجلـــود[3].

أمّا عن أسعار هذه المادة، فكان "الدلاّل"[4] هو الضابط لها في السوق، فعلى إثر اتّصاله بهؤلاء الحرفيين تتكوّن لديه نظرة حول سعر الجلود، فيبلّغ أمين الطائفة، وهذا الأخير يحدّد السعر اليومي بعد استشارة المنتجين، وقد كانت هذه الطريقة مطبّقة على صناعات أخرى، كصناعة المصوغ التي كان آخر أمين لها السيّد "محمد بن قلفاط " وكان يُلقّب بـــ "أمين الفضة"[5]، وهذا ما يدلّ – أيضا – على أنّ تلمسان اشتهرت أيضا بصناعة المعادن وخاصة النحاس، ولكنّ للأسف الشديد لم يبق أيّ أثر لهذا النشاط بالمدينة فكلّ ما هو معروض بالمحلاّت إنّما يجلبه أصحابه من مدن بعيدة كالجزائر وقسنطينة اللتان ما زالت تحفظ بحرفيين

1 التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية : نقادي سيدي محمد، ص 201.

2 توجد بهذا الفندق مصطبة، كانت مخصّصة لعرض الجلود. وقد حوّل الفندق إلى مقهى.

3 التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية : نقادي سيدي محمـــد، رســـالة ماجســـتير، ص 192.

4 الدلاّل : شخص يعيّنه الأمين. يحمل هذا الدلاّل الجلد ويطوف به في السوق، وعن طريـــق المزايـــدة يُحدّد السعر اليومي للجلد.

5 ينظر المرجع نفسه، ص 198.

يعرفون أسرار هذه الصناعة.

لوحة إشهارية للمتحف الشرقي الذي كان موجودا قرب " المشور"

وقد شهد القرن العشرين تطوّرا كبيرا وسريعا للدّباغة وخاصة في البلدان التي أدركت قيمة هذا النشاط فأولته كلّ الاهتمام والعناية واكتسبت بذلك سمعة عالمية. وهكذا أصبحت الدّباغة صناعة بمعنى الكلمة شأنها في ذلك شأن الصناعات الأخرى التي يُعتمد عليها في نموّ هذه البلدان اقتصاديا.

وقد أمدّ التطوّر التكنولوجي الذي أحرزته هذه الدول دفعة كبيرة لهذه الصناعة؛ حيث أصبحت مُربحة سواء بإنتاج مواد نصف مصنّعة أو بإنتاج جلود

مدبوغة. ولا تزال الدباغة إلى أيّامنا تسجّل تطوّرا وتقدّما بسبب الإقبال الدائم على شراء المنتوجات الجلدية على اختلاف أنواعها كالأحذية والحقائب والمحافظ والأحزمة وغير ذلك.

وقد رافق هذا التطوّر نموٌّ في الصناعات الكيميائية المتعلّقة بالدباغة من خلال إنتاجها لمواد الدّبغ والصباغة والصقل والتلميع، وكذلك مساهمتها في تقدّم طرق الدباغة وتحسين الإنتاج، ومن ثمّ تلبية مطالب الدبّاغين والعاملين في صناعة الجلود. ومواد الدبغ كثيرة، وترجع كلّها إلى ثلاث مجموعات هي :

1- خلاصة النباتات الدباغية : استعملت الخلاصات النباتية في الدباغة منذ عهود بعيدة، فهي أقدم طريقة عرفتْها الإنسانية، ولا زال الكثير من الحرفيين – في المغرب الأقصى مثلا – يستعمل الطريقة نفسها.

والدباغة بهذه المواد تستغرق مدّة طويلة من الزمن تتراوح بين 4 إلى 5 أشهر وفي بعض الأحيان إلى أكثر من ذلك[1]، و لم تَعدْ هذه الطريقة تُطاق في يومنا هذا، على الرغم من أنّها تجعل الجلود أكثر قوّة وكثافة وثَباتا – أي لا تقبل التمدّد–. ولهذا فقد استخدمت لدباغة النعل وتبطين الأحذية والتنجيد وصنع المحافظ والأحزمة وغير ذلك من المنتوجات. و يمكن أيضا تزيين وزخرفة هذه

1 ينظر : دباغة الجلود وصناعة المواد المتعلّقة بها، ص 9.

الجلود، فيستعملها الحرفيون لتجليد الكتب مثلا.

X ومن المواد النباتية المستعملة عادة في الدباغة هي خلاصات نبات السنط (أي الميموزا) وشجر البلوط الفليني (Chêne liege)، والكبرش (quebracho)[1]، ولحاءُ الرمّان وتَكَاوْت[2] الذي شائع استعماله في الدباة التقليدية بتلمسان، وغيرها.

والدّباغة بهذه المواد، تستلزم تّباع الطريقة التالية[3] :

X

طريقة الدباغة بالمواد النباتية	
العملية	المواد
بشر الجلد	جير ، رماد
Pelannage	جير
Déchaulage	نزع الجير
Confitage	الحفظ
Pickalge	أحماض : مثل ملح الطعام
الدّبغ	لحاء السنط، لحاء البلوط الفليني، لحاء الرمّان
الصباغة	زيوت : مثل زيت الزيتون
التطعيم	لحاء الرمّان مثلا

2- الدبغ بالكروم[4] (Chrome) : لقد عرفت الدباغة بالكروم منذ عهد مبكّر في القرن التاسع عشر، فعوّضت هذه طريقة عملية الدبغ بالمواد النباتية وأصبحت في

1 الكبرش أو الكبراشو : وهو التين الهندي.

2 نبات يستعمل في الدباغة، اسمه العلمي Tamarix articulata

3 Revue : Terre et Vie, N° 42; Mars 2000. Secteur de la tannerie au Maroc par Mohamed Marzak . وقد أبقيت بعض الكلمات في لغتها الأصلية لأنني لم أجد لها ترجمة

4 الكروم مادة كيميائية، ورمزه Cr.

أيّامنا الأكثر استعمالا[1]؛ لأنّها تُقلّص من الزمن الذي تتطلّبه عملية الدباغة. فـإذا كانت الدباغة بالمواد النباتية تتطلّب شهورا، وفي بعض الأحيان سنة إلى سنتين؛ فـإنّ الدباغة بالكروم تتطلّب يوما أو يومين[2].

إنّ الجلود المدبوغة بالكروم هي بالمقابلة مع الجلود المدبوغـة بالنباتـات رخوة وناعمة وقابلة للتمدّد، وهي تميل أيضا لتصبح أكثر طراوة وليونـة ممّـا يجعلها مُقاوِمة للاهتراء بالاحتكاك والثني، ولهذا تستعمل هذه الأنواع من الجلود في وجوه الأحذية والقفازات والملابس.

والدّباغة بهذه المواد، تستلزم اتّباع الطريقة التالية[3] :

طريقة الدباغة بالكروم والمواد الكيميائية	
العملية	المواد
بشر الجلد	الجير + سلْفات الصوديوم
Pelannage	الجير
Déchaulage	كبريتات الأمونياك
Confitage	Confit : Enzymatique
Pickalge	حمض الكبريتيك
الدّبغ	الكروم
Basification	بيكاربونات
صباغة + تطعيم	صباغ كيميائي + زيوت كيميائية

1 مقال بدون عنوان على شبكة الانترنت.

2 ينظر : دباغة الجلود وصناعة المواد المتعلّقة بها، ص 9.

3 **Revue : Terre et Vie, N° 42; Mars 2000. Secteur de la tannerie au Maroc par Mohamed Marzak.**

3- مواد الدّبغ المصنّعة : الدباغ الاصطناعي خليط مُعقّد جدّا، تَعتمد خصائصه على التوازن الكيميائي مع خواص المواد الغروية التي تحتويها الجلود[1]. وَهي تُستعمل مع مواد دباغية أخرى لتعديل فعلها، كما أنّ لها استخدامات عديدة مُساعدة لتقوية الجلود، ممّا يجعلها ضرورية لصنع منتوجات جيّدة، وكذلك إنتاج أنواع خاصة من الجلود تسمح بزخرفتها[2].

ويمكن تصنيف المواد الدباغية المصنّعة حسب تركيبها الكيميائي واستعمالاتها الرئيسية إلى ثلاث مجموعات[3] :

- المواد الدباغية الصناعية المساعدة.
- المواد الدباغية الصناعية المركبة
- المواد الدباغية الصناعية البديلة.

وبغض النظر عن الخصائص الكيميائية لهذه الأصناف الثلاث، فإنّ لكلّ مادة من هذه المواد خصائص دباغية تعمل على تحسين صفات الجلد وَضبط نظام الدباغة، ولهذا فهي تستعمل مع كلّ أصناف الجلود[4].

ولكن، السؤال الذي يبقى مُطرحا هو : كيف تتمّ عملية الدباغة ؟

---

1 دباغة الجلود وصناعة المواد المتعلّقة بها، ص 32.

2 ينظر المرجع السابق، ص 32.

3 نفسه، ص 32-33.

4 نفسه، ص 32.

قبل الإجابة على هذا السؤال، لابدّ من الإشارة إلى أنّ المراجع التي تناولت طريقة دباغة الجلود في الجزائر قليلة جدّا – إن لم نَقُل أنّها منعدمة –، لكنّ سبق و أنْ ذكرنا بأنّ الطريقة المستعملة في المدابغ الجزائرية[1] هي الدباغة بالكروم Chrome، ولهذا فإنّنا سوف نتتبّع أهمّ مراحلها إلى أن يُصبح الجلد صالحا للصناعة.

إنّ الجلود تصل عادة للمدبغة و هي معالجة بالملح ولكنّها بتأثير الرطوبة التي تتراكم في أليافها (مكوّنات الجلد) تكون معرّضة لنموّ البكتريا وَالعفونة، ولذلك يجب التعجيل بمعالجتها باتّباع العمليات التالية :

أ) عمليات ما قبل الدباغة (تهيئة مادة الجلد).

1- التمليح : كلّ الجلود التي تصل المدبغة تكون مطلية بالملح؛ لأنّ هذه المادة تحافظ على الجلد وتمنعه من الفساد وبالتالي تنجح عملية دباغته.

2- تشذيب الجلد : وأوّل خطوة في هذه العملية هي نفض الجلد بقوّة لإزالة الماء والملح العالق به، ثمّ يُفرد بحيث تكون ناحية الشعر للأسفل، و عندئذ تُقصّ الزوائد مثل الذنب و الرأس و الأرجل و النواحي البارزة. ثمّ يقلب الجلد بحيث يكون الجانب الذي به الشعر للأعلى ويوضع بشكل طولي فوق لوح أو جذع خشبي ناعم. و عند ذلك يشق الجلد بواسطة سكين حادة من الرقبة حتّى الذنب بشكل مستقيم وسط العمود

1 تُستعمل طريقة الدبغ بالكروم في مدابغ جيجل و العامرية بولاية وهران.

الفقري إلى نصفين، والغرض من هذا الشقّ تسهيل عملية معالجة الجلد فيما بعد.

3- الشطف والـنقع : يجب أن تُنقع الجلود أو تُغسل في أسطوانات دوّارة باستخدام بعض المواد، وذلك لإزالة الأوساخ والملح الزائد ولإعادة الجلد إلى طبيعته التي كان عليها بعد عملية السلخ.

4- الحشو : تتمّ عملية الحشو في دنّان قلاّبة تحتوي على مادة الجير الذي تُسْرع من إزالة الشعر، والغرض من هذه العملية تطرية نسيج البشرة الدسم قبل عملية الدباغة.

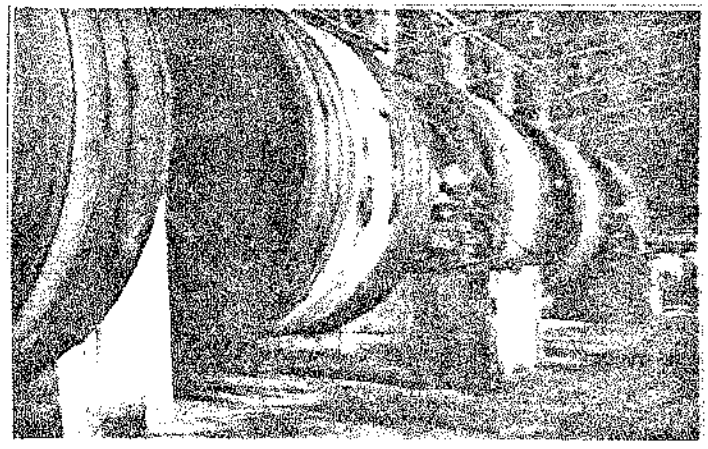

5- إزالة الشعر وتنظيفه قبل الدباغة : يزال الشعر المتبقي بكشطه ميكانيكيا، ثمّ يتمّ عَصْره بآلات ظاغطة تُزيل جذور الشعر الدهنية وَغير ذلك.

6- إزالة آثار الجير : تغسل الجلود بالماء وبعض الأحماض الخفيفة، حتّى تختفي كلّ آثار الجير.

7- عملية التطرية : وهي جعل ألياف الجلد مَرِنَة لتَقبل مواد الدباغة وإعطائه الخصائص المطلوبة عند عملية التشطيب والإتمام. والضبط الدقيق لهذه الوظائف يعطي الجلد مظهرا جذابا وملمسا مرغوبا وقوّة ومرونة.

8- التحميض : وهذه آخر عملية تتمّ قبل المباشرة بالدّباغة بالكروم، وتتمّ أوّلا لمنع الطبقة السطحية للجلد من التبغ بسرعة كبيرة.

ب) عملية الدّبغ وما يليها :

1- عملية الدّبغ : وهنا يتحوّل الإهاب إلى جلد مدبوغ، بحيث يكون رطبا وأكثر قساوة.

2- التشطيب والإتمام : بعد دباغة الجلد يجب أن يمر بعمليات أخرى متمّمة حتّى يصبح جاهزا للاستعمال والبيع والتصدير. وتختلف طبيعة هذه المراحل حسب نوع الجلد المطلوب وهذه المراحل هي :

* العَصْر : والقصد منه إزالة السّائل من الجلود وجعلها ممطوطة

ومشدودة؛ حيث تمرّر فوقها مصقلة من الوجهين.

* الشقّ والتشريح : تشقّ الجلود السميكة إلى شرائح حسب السمك المطلوب بآلات خاصة. أمّا الطبقة التي تحتوي على جرابات الشعر، فإنّها تكون رديئة بسبب احتوائها على آثار لسعات الحشرات وندبات الخدوش.

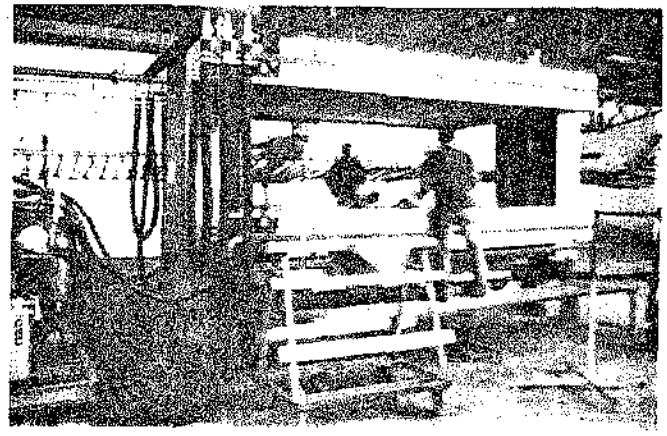

* إعادة الدبغ : تتطلّب بعض أنواع الجلود إعادة دبغها، فيكون ذلك باستعمال مواد الدبغ النباتية أو المصنّعة التي تجعل الجلد صالحا للاستعمال

والتشكيل والصبغ.

* الصباغ : و هو أنْ يُعطى للجلد لوْن باستعمال أصباغ نباتية أو مصنّعة.

* السوائل الدهنية : يفرغ سائل الصباغ ويضاف إليه السائل الدهني. فهذه المعالجة تُجدّد وتعيد الزيوت الدهنية الموجودة طبيعيا في الجلد والتي أزيلت خلال مراحل السابقة للدباغة. ويتألّف السائل الدهني من زيوت مستعملة تعيد للجلد نعومته وطراوته ومرونته.

* النشر والتجفيف: تعلّق الجلود على حوامل في غرفة دافئة ويفضّل أن يتمّ التجفيف بواسطة مَراوح كهربائية مولّدة للهواء الساخن حتّى تَطرد جميع الرطوبة من الجلود.

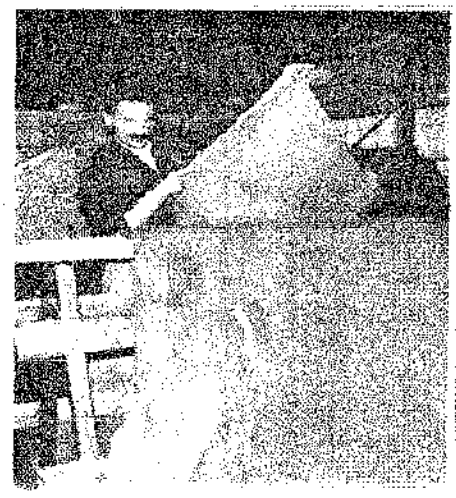

* التنعيم : من المحتمل أن توجد بعض الأماكن تَظهر جوانبها متكتلة أو أن تكون سماكتها غير متناسبة مع بقية السطح، ويمكن إزالة هذه الكتل بواسطة

الة تدعى دولاب الصنفرة.

* التشطيب النهائي : وهي اخر عملية يخضع لها الجلد، حيث يستعمل في هذه المرحلة الطلاء لتخضيبه وصبغه وصقله وتلميعه.

نلاحظ ممّا سبق أنّ الجلود تمرّ بمراحل عديدة لدباغتها، ويمكن تحديدها في ثلاث مراحل كبرى :

- مرحلة يكون فيها الجلد على اتصال دائم بالماء؛ حيث يتمّ فيها البشر والشطف والنقع والغسل
- مرحلة تطرية الجلد ودبغه : ويتم فيها العصر والتجفيف وتطرية الجلد.
- مرحلة التشطيب : وهنا يُعطى للجلد طابعه التجاري من خلال صباغته وتلميعه.

وعلى هذا الأساس، تبقى الجلود غالية الثمن باعتبارها تتطلب وقتا ومجهودا كبيرين تصنيعها، وهذا ما يفسّر غلاء المنتوجات الجلدية المصنوعة من الجلد الطبيعي.

وفي الاخير، تجدر الإشارة إلى انّ هذه الصناعة – الدّباغة – بقدر ما لها من ميزات إنتاجية واقتصادية، بقدر ما لها من آثار سلبية على المحيط والبيئة، فهي تلوّث المجاري المائية إذا ما القيت نفاياتها بدون ايّة معالجة مسبقة؛ إذ انها

ترمي كميات كبيرة من المواد، منها ما ينحلّ بسرعة مثل الدهنيات (الشحم)، ومنها ما يطول انحلاله مثل الشعر ومواد سامّة أخطرها "الكروم" المستعمل بكثرة في دباغة الجلود. ولهذا تقوم بعض البلدان المتقدّمة بتصدير منتوجها نصف المصنع إلى بلدان فقيرة أو سائرة في النموّ لدبغه بأقلّ تكلفة ممكنة، والأهمّ من ذلك هو إبعاد خطر التلوّث البيئي.

وقد وَجدت الكثير من الدول حلاّ لهذا المشكل، إذْ أنّ البعض منها يقوم – كإجراء أوّلي – بمعالجة المياه التي تطرحها المدابغ في مصانع أنشأت خصيصا لذلك على الرغم من ارتفاع تكاليف بنائها وتجهيزها.

صباغة الجلود :

لقد عني الصينوين والهنود والفرس بصناعة الأصباغ لما لها من أهمية في كثير من المجالات الحياتية، والمسلمون كذلك استخدموا الأصبغة في تلوين منسوجاتهم وزرابيهم بالإضافة إلى الأواني الخزفية والزجاجية والقاشاني والفسيفساء والزخارف الجصية والكتابية والمصنوعات الجلدية على وجه الخصوص[1].

وقد كان للتقدّم العلمي الذي توصّل إليه المسلمون وخاصة في العلوم

1 ينظر : نشأة الزخرفة وقيمتها ومجالاتها : فوزي سالم عفيفي، ص 149.

الكميائية أثر كبير في تطوّر صناعة الأصباغ. فالأصباغ على أنواع كثيرة منهـا المائية والفلزية والمستخرجة من مصادر طبيعية وأغلب هذه الصبغات مركبـات فلزية، وبعض هذه الصبغات توجد في التربة والصخور وهناك صبغات مأخوذة من مواد نباتية مثل النيلة التي يستخرج منها اللون الأزرق وَ قشور الرمّان ونبتة الحنّاء التي يستخرج منها اللون الأصفر الأشقر. أو مواد حيوانية كالقرمز الـذي يعطي اللون القرمزي، وهناك صبغات توخذ من قطران الفحم وهي ذات اللـون الأسود. أمّا صباغ اللكّ فيحضّر من عدّة مواد.

وعلى هذا تُعرف الصبغة على أنّها " عبارة عن مادة ملوّنة تستخدم مُذابة لتلوين الأجسام المختلفة، وهي تختلف عن المسحوق الملوّن الذي يضـاف إلـى الوسيط أو المادة الرابطة ويكون ملوّنا يغطي سطح الجسم "[1]. وحتّى تكون عملية الصباغة ناجحة فإنّه ينبغي استعمال الصبغة بكمية مقدرة ومحدّدة بدقة، وبعد هذه العملية تبدأ عملية تليين الجلد وترطيبه وتمليسه، وقد استعمل الحرفيون في ذلـك الزيوت كزيت الزيتون.

وللأصبغة دورا ذو أهمية كبيرة في مجال تسويق المنتوج الجلدي؛ إذ أنّها تجعله أكثر جمالا وزينة، كما أنّها تعمل على حفظ طبقة الجلـد السـطحية مـن

---

1 عنايات مهدي : فن الزخرفة على الجلد، ص 10.

مؤثرات الرطوبة والحرارة من خلال غلق المسامات الموجودة في الجزئيات الجلدية وبذلك يُحفظ الجلد من المؤثرات الطبيعية.

وعلى ضوء ما تقدّم، لابدّ أن ننوّه بالدور الذي يلعبه اللون في تسويق جميع المنتوجات وعلى وجه الخصوص المشغولات الجلدية، فإلى جانب التنوّع الذي طرأ على هذا المنتوج، فإنّ الألوان كذلك قد تعدّدت أصنافها بحيث أصبح المستهلك في حيرة من أمره لاختيار ما يناسبه من بضاعة و لونٍ. و لكن بالرغم من ذلك، فإنّ تعدّد الألوان جعل المنتوج الجلدي العصري – وخاصة في البلدان الأجنبية – سريع التسويق والتصدير.

الفصل الثالث

تـمهيد :

إنّ كلمة "maroquinerie " أو كما نُسمّيها نحن "الصناعة الجلدية" مصطلح عام وشامل يضمّ أنواعا عديدة من المنتوجات. وهو مشتق من كلمة "maroquin" التي تُعيّن أحد أنواع جلود الماعز التي كانت تُدبغ بطريقة يُقال أنّها اكتشفت في المغرب الأقصى[1].

ولهذا، فإنّ كلمة "maroquinerie " تختصّ بإنتاج المصنوعات الجلدية، وهي عموما منتوجات شخصية مثل الأحزمة و الحقائب و المحافظ و غير ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المنتوجات تُصنع في أيّامنا من مواد غير الجلود الطبيعية كالجلود الاصطناعية (skai) والقماش، متكيّفة بذلك مع متطلّبات المجتمع والموضة وخاصة الأسعار.

وتعدّ الصناعة الجلدية إحدى الصناعات التي وسعها الفضاء الحرفي التلمساني. فبعد دباغة الجلود وجعلها صالحة للاستعمال تُصنع منها أشياء عديدة ومتنوّعة يُستفاد منها بالدرجة الأولى لأغراض نفعية كالأحذية مثلا، وأخرى للزينة والزخرفة كالمفروشات والوسائد الجلدية، بالإضافة إلى صناعة سروج الخيل وركائبها وتجليد الكتب.

1 Voir : Site WEB : http://perso.wanadoo.fr.

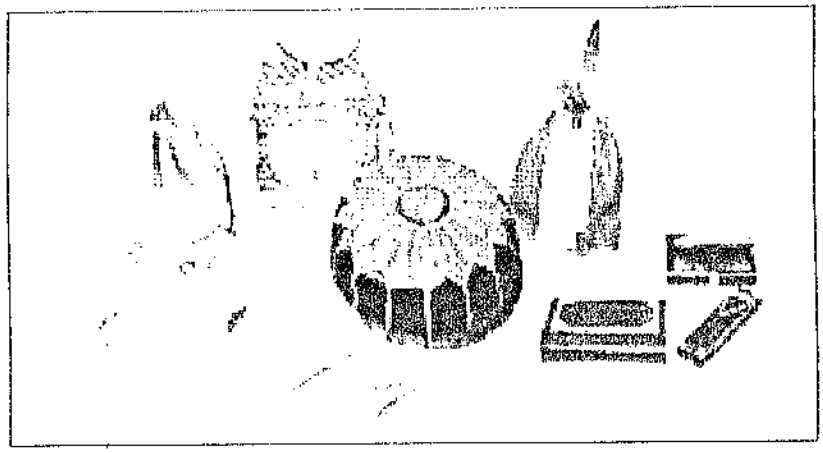

منتوجات جـــلدية

وما يدلّ على انتشار المنتوجات الجلدية في السنوات الماضية -في تلمسان- وجود عدد كبير من التجار الذين كانت لهم شهرة كبيرة في مختلف أنواع المصنوعات، وخاصة الجلدية. وهاتان اللوحتان الإشهاريتان التي تعودان إلى بداية القرن العشرين لأصدق تعبيرا عن أيّ كلام!.

أهمّ المنتوجات الجلدية :

من أهمّ المصنوعات الجلدية التي اهتمّ الحرفيون في تلمسان بصناعتها منذ زمن بعيد، وكانت سببا في شهرة المدينة في وقت من الأوقات :

* البلْغــة (Babouche):

من بين المصنوعات الجلدية التي اشتهرت بها مدينة تلمسان والتي تكاد اليوم تندثر بحكم الإهمال وعدم الاهتمام بها صناعة البلاغي. ولقد عرفت هذه الصناعة في السنوات الماضية ازدهارا كبيرا وشهرة تعدّت حدود البلاد لما تتميّز به من جودة ودقة من حيث تصميمها وطرزها. ففي ماض ليس بالبعيد كان أهل تلمسان من شيوخ وشبّان وأطفال يرتدون في المناسبات والأعراس الألبسة التقليدية التي تزيّنها البلغة فتزيدها جمالا ورونقا.

وهكذا تعدّ " البلْغة " من العناصر التي تميّز اللباس التقليدي التلمساني، فَشَكْلها الكلاسيكي لم يتغيّر منذ زمن بعيد. فالبلغة الرجالية تكون عادة صفراء لدباغتها بلحاء الرمّان أو بيضاء[1]، وكلّ حرفييّ المدينة مُتّفقين على أنّ البلغة التلمسانية تختلف عن البلغة المغربية (الفاسية) لأنّها ذات مقدّمة (pointe) دائرية بخلاف الفاسية التي مقدّمتها مدبّبة (pointue)[2]، ولكن تأثرهم واحتكاكهم بالحرفيين المغاربة أدّى بهم إلى صناعة هذا النوع من البلاغي وشاع استعمالها بالمدينة.

بلغة من جلد الماعز المصبوغ بلحاء الرمّان

وتجدر الإشارة إلى أنّه يُطلق على بلغة تلمسان " البُورية " نسبة إلى عائلة " البُوري" المعروفة بصنع البلاغي، فهي قد توارثت هذه الحرفة جيلا بعد جيل.

وترتكز تقنية صناعة "البلغة" على مهارة الحرفي بالدرجة الأولى، لأنّ

1 وقد تكون بألوان أخرى، لكن البلغة الصفراء والبيضاء هي الأكثر استعمالا.

2 مقابلة بتاريخ **2002/03/17** مع السيّد بن منصور عبد الله، حرفي في الصناعة الجلدية.

إنجازها يتطلّب الدقة والإتقان. كما أنّ صعوبة استعمال الجلد الأصفر[1] القابل للاتّساخ تُحتّم على الحرفي أن يأخذ الوقت الكافي لِصنع البلغة؛ لأنّه يصعب إزالة الأوساخ من هذا النوع من الجلود. ولهذا لابدّ للحرفي أن يحرص على بقاء يديْه نظيفتيْن طِوال مدّة الصنع.

حِــرفي يصنع " البلغــة "

يُصنع الجزء العلوي من البلغة من جلد الماعز المدبوغ بلحاء الرمّان، أمّا الجزء السفلي المُلامس مباشرة للأرض فهو من مصنوع من جلد الأبقار.

يقوم الحرفي بتفصيل قطعتان مثلثتان من الجلد، سواء باستعمال مقياس يكون عادة من الورق المقوّى، تُخاط هاتين القطعتين بثلاثة خيوط مختلفة : خيط

1 وتُستعمل اليوم الجلود الاصطناعية في صنع البلغة.

من النيلون ممزوج بخيط من الحرير لضمان الخياطة المتينة، ثمّ خيط آخر من الحرير وهو الوحيد الذي يبقى ظاهرا في النهاية. وأخيرا تُلصق هاتان القطعتين مع الجزء السفلي بواسطة قطعة من الجلد وبطريقة يُتقنها الحرفي.

أمّا الجزء السفلي من البلغة فهو مكوّن من عدّة عناصر، فالقطع العليا منه (الورق وجلد الماعز) تُخاط لوحدها ثمّ تُلصق بالقطعة السفلى التي هي من جلد الأبقار. أمّا آثار الخياطة التي تظهر عند الانتهاء من الصّنع نتيجة إلصاق القطع مع بعضها فيتمّ إخفاؤها بصقلها بمادة الصابون.

وأخيرا يقوم الحرفي بتشكيل منتوجه باستعمال القالب (أنظر الشكل الموالي) الذي يُدخله في البلغة، بحيث يُبقيها لمدّة من الزمن إلى أنْ تأخذ شكلها النهائي الكلاسيكي. أمّا الأدوات المستعملة في صنعها، فهي أدوات بسيطة تحتاج فقط لليد الماهرة التي تُحسن استخدامها.

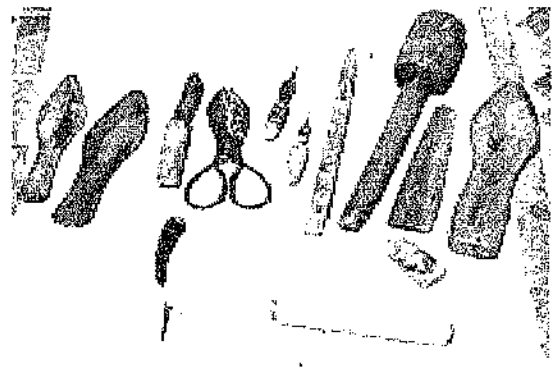

من اليمين إلى اليسار : قالبين (matrices)، سكين، مقص، إبـــر، مدق، قالب التشكيل

والملفت للانتباه أنّ طغيان الجلد الاصطناعي على الصناعة الجلدية قد أصاب حتّى البلغة، إذْ أنّ المتجوّل في محلاّت بيع الأحذية بوسط المدينة يلْحظ أنواعا عديدة من البلاغي قد تفنّن الحرفيون في صنعها؛ حيث الطلب عليها مرتفع جدّا لأنّ أسعارها منخفضة مقارنة بتلك المصنوعة من الجلد الطبيعي. لكنّ هذا لا يعني أنّ صناعة البلغة التقليدية قد توقّفت، فلا يزال يسهر بعض الحرفيين على إنتاجها رغم نقص الطلب عليها.

* **الوسائد الجلدية (Poufs) :**

تُعدّ الوسائد الجلدية من المنتوجات التي اشتهرت بها بلاد المغرب[1]، فهي من العناصر الأساسية التي تميّز الصالونات التقليدية للمنازل التلمسانية، لأنّها ذات ألوان زاهية وجذابة، فقد تكون مصنوعة من لون واحد أو مزيج متناسق من الألوان. كما أنّها على أشكال مختلفة، فمنها المربّعة والمستطيلة والأسطوانية.

ومن خصوصيات هذه الوسائد أنّها كانت تُخاط، من بداية الصنع إلى اكتمال المنتوج باليدين، إلاّ أنّ الحرفيين أصبحوا – في الآونة الأخيرة – يخيطون كلّ الأجزاء بآلة الخياطة من أجل ربح الوقت وإنتاج كميات أكبر، ما عدا الوجه العلوي الذي يدخل في صناعته أجزاء كثيرة، ولهذا فمعظم الحرفيين يستعينون

1 ينظر : نشأة الزخرفة وقيمتها ومجالاتها : فوزي سالم عفيفي، ص 150.

بالنساء في تحضير هذا الجزء المهمّ من الوسائد[1]. كما أنّها تُطرز بخيـــوط مـــن الحرير أو قطع من الجلد الملوّن.

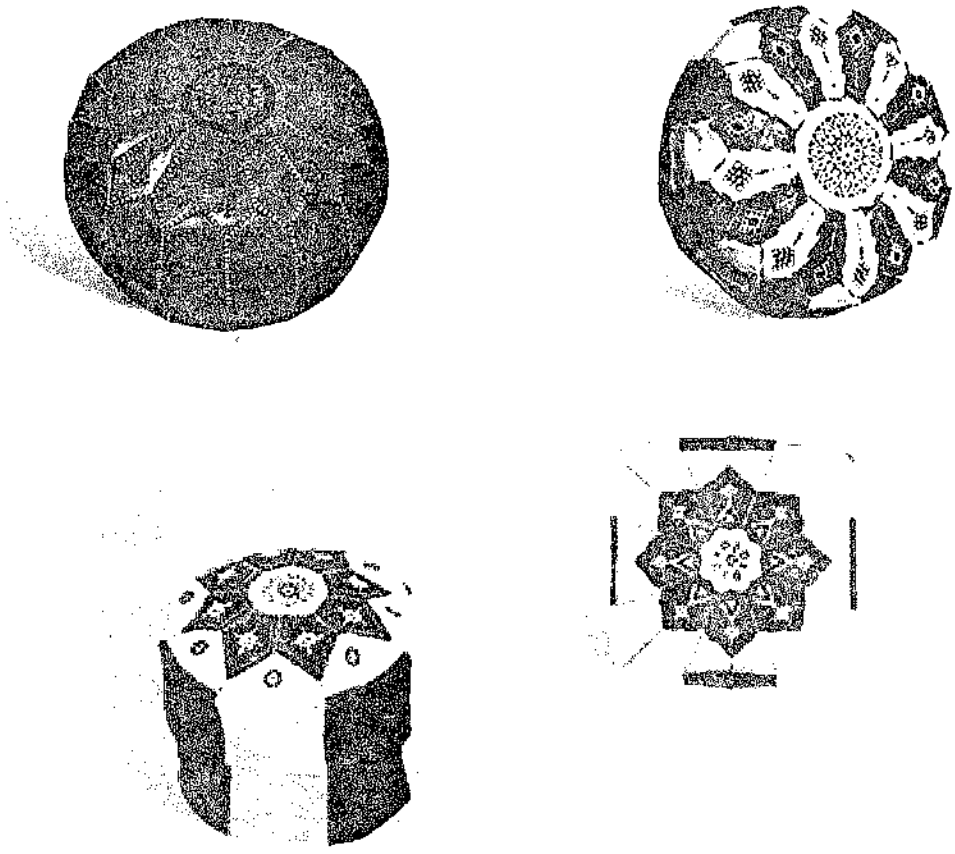

مجموعة من الوسائد بألوان وأشكال مختلفة
مصنوعة من الجلد الطبيعي.

فالحرفي يُعبّر عن إبداعاته ومهاراته الفنية من خلال التنويع في زخرفة وتزيين هذه المصنوعات الجلدية؛ فالأشكال الزخرفية التي نجدها في الجزء

1 مقابلة مع السيّد حليمي حبيب، حرفي في الصناعة الجلدية بتاريخ 2002/03/24.

العلـوي[1] تكون عادة مَطروزة، وتلك الموجودة في الأجزاء الجانبية تُزخرف باستعمال جلود ذات ألوان مختلفة.

ولأنّ طريقة الزخرفة هذه تتطلّب وقتا كبيرا، فقد اتّخذ الحرفيون أسلوبا آخر في التنميق والتزويق، فاستعملوا أولا الضغط بالتسخين (compression au petit fer) ثمّ الخاتم أو الطابع (poinçon) سواء المحفور بنقوش غائرة (poinçon gravé en creux) أو بارزة (en relief)، ثمّ استخدمت الصفائح المنقوشة على شاكلة قوالب (Estampage au balancier) لأنّها تسمح بطَبْعِ أشكال وزَخارف كبيرة، وبسرعة فائقة، ومن ثمّ تنقص تكلفة المنتوج الجلدي[2].

وهناك طريقة أخرى أصبحت كثيرة الاستعمال في تلمسان من طرف الحرفيين القلائل الذين تعدّهم المدينة، فهم يُزخرفون منتوجاتهم عن طريق الطباعة بالطلاء (Sérigraphie) مستعملين في ذلك نماذج جاهزة (cliché). وَهي طريقة سهلة وسريعة تسمح بالتنويع في الزخرفة وربح الوقت بالدرجة الأولى، إلاّ أنّ من عيوبها أنّها تستعمل فوق الجلد الاصطناعي فقط، وأنّها تنمحي بسرعة عن طريق اللمس المتكرّر أو المؤثرات الطبيعية.

---

1 الجزء (الوجه) العلوي : يسمّى عند عامة الحرفيين بـــ "الصارمة".

2 **La composition décorative : Henri MAYEUX; p. 273-274.**

تُصنع الوسائد الصغيرة الحجم من جلد الماعز، ولكن في حالة عدم توفّره يعمد الحرفي إلى إنجازها من جلود الأبقار والغنم، أمّا الأدوات التي تستعمل في هذا النشاط[1] تبقى في غاية من البساطة، فمهارات الحرفي في استخدامها هي أساس هذا الصناعة.

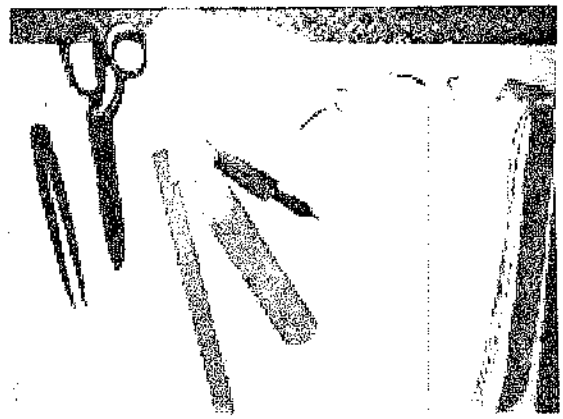

بعض الأدوات المستعملة في صنع الوسائد

وتقنية صنع هذه الوسائد تتمّ أوّلا برسم أشكال مختلفة على الجلد باستعمال أداة تسمّى البيكار (compas)، ثمّ تُقصّ هذه الأشكال بطريقة محكمة يُراعي فيها الحرفي الاستغلال الأمثل لمادة الجلد حتّى لا يُضيّع منها الكثير. ثمّ تُهيّأ وتُحضّر كلّ قطعة – الجزء العلوي دائري أو مربّع، الجزء السفلي، الجوانب – على حدة، ثمّ تُخاط هذه القطع الجلدية مع بعضها، حيث يُترك في الجزء السفلي تجويف يسمح بحشو الوسادة (بالصوف مثلا) وتُغلق بِرِبَاط. أمّا ما يتبقّى من الجلد (الجلد

1 أختام وقوالب وإبـــر كبيرة وسكاكين خاصة وأحجار للصقل وفرشاة تكون عادة من شعر الماعز.

الضائع) يستخدمها الحرفي في صنع منتوجات صغيرة الحجم تَصلُح للتزيين أوَ الإهداء أكثر من صلاحيتها للاستعمال.

منتوجات جلدية أخرى :

تضمّ الصناعة الجلدية عدّة نشاطات مهنية تختصّ بإنتاج أنواع مختلفة ومتنوّعة من البضائع تستمدّ وجودها من أيادي بارعة بلا حدود ومن تصوّرات ذكية وخيال رفيع وتقليد مبدع، من أهمّها الأحذية والحقائب والمحافظ والأحزمة وَسروج الخيل، بالإضافة إلى صناعة تجليد الكتب وغير ذلك من المنتوجات.

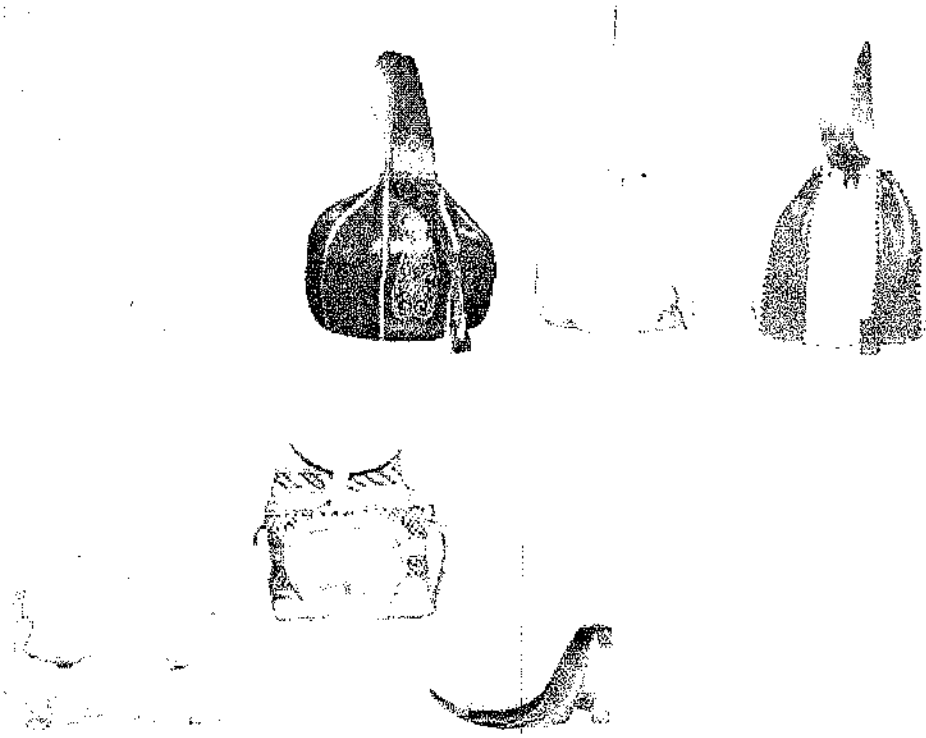

مجموعة من المنتوجات الجلدية : حقائب ومحافـظ

تجليد الكتب :

فهي حرفه ضاربة في عمق التاريخ؛ حيث كانت لها خصائصها وَطابعها التقليدي الذي كان يتواءم مع إمكانيات تلك المرحلة، فقد كانت تستخدم الجلود لتجليد الكتب والمؤلفات التي كانت متقطّعة أو مهترئة، ليقوم الحرفي الماهر بترميمها وإعادتها كالجديدة.

ولقد عَرَف العرب هذه الصناعة منذ زمن بعيد، فقد أولى المسلمون عناية واهتماما كبيرين لهذا الفنّ، حيث عَمَدُوا أوّلا إلى تجليد المصحف الشريف وَالتفنّن في زخرفته لِما لهذا الكتاب من أهمية روحية وَعقائدية، وَثانيا كُتب الفقه ثـــمّ تليها أصناف أخرى في شتّى ميادين العلم. وَ "نتيجة لنهضة فنّ الكتاب تطوّرت صناعة التجليد عند المسلمين بحيث أصبح لها شكل مميّز منذ القرن السابـــع الهجري "[1].

وقد اعتبر " عمل المجلّد متمّما لعمل الخطاط، إذ وقعت عليه مسؤولية حفظ أوراق الكِتاب من التلف وَالعناية بمظهره الخارجي بحيث يتلاءم مع قيمة الكتاب وَمحتوياته. كما وقعت عليه زخرفة جلد الكتاب ولِسانه[2] بل تعدّتها إلى باطن الغلاف وقسمًا من أوراقه "[3]. وقد كانت " طريقة اللسان في التجليد العربي

---

1 نشأة الزخرفة وقيمتها ومجالاتها : فوزي سام عفيفي، ص 150.

2 لا يزال الأوروبيون يستعملون هذه الطريقة في تجليد مؤلفاتهم.

3 نشأة الزخرفة وقيمتها ومجالاتها : فوزي سام عفيفي، ص 150.

الذي غايته حماية الأطراف الأمامية للكتاب معروفة قبل الإسلام وَبدايته[1].

ولقد انتقل أسلوب تجليد الكتب العربي إلى المغرب، ثمّ إلى إسبانيا وإلى إيطاليا عن طريق التجارة المغربية عبر صقلية؛ حيث " نجد في صناعة التجليد الأوروبية المختلفة كثيرا من لمسات الصناعة العربية وزخارفها "[2]، و" يعترف جملة من المستشرقين بالتحسينات الفنية في صناعة التجليد الأوروبية التي تعلّموها عن العرب، واشتملت هذه التحسينات على إحلال الورق المقوّى محلّ الخشب كمادة داخلية لجلد الكتاب والكتابة المذهّبة على الجلد بواسطة أداة محماة"[3]. وَ أوّل تجليد استعمل فيه التذهيب في الغرب يرجع تاريخه إلى عام 1256 م[4]، وهذا ما يبيّن بأنّ العرب كانوا السبّاقين في هذه الصناعة.

فتجليد الكتب إذن، هو " عملية فنية تقنية تجري بهدف تماسك الصفحات مع بعضها البعض، ومن ثمّ حمايتها وحفظها لكي تبقى على شكلها الأصلي"[5] بواسطة غطاء من الجلد. وهذا ما يفسّر بقاء المخطوطات العديدة التي يُحتفظ بها

---

1 ينظر : ابتكارات العرب في الفنون وأثرها في الفن الأوروبي في القرون الوسطى : محمد حسين جودي، ص 37.

2 ابتكارات العرب في الفنون : محمد حسين جودي، ص 64.

3 المرجع نفسه، ص 64.

4 نفسه، ص 37.

5 الصناعة التقليدية بنطقة تيديكلت –صناعة الفخار والجلود نموذجا– دراسة ميدانية فنية إثنوغرافية: بوسليم صالح، ص 87.

في المكتبات العامة، وقد نعثر عليها في مكتبات خاصة عند بعض العائلات التلمسانية التي توارثتها جيلا بعد جيل.

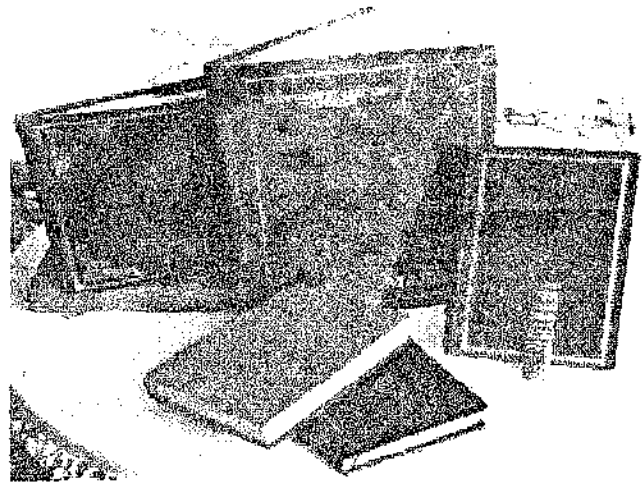

مجموعة من الكتب المجلّدة

وَالملفت للانتباه أنّه على الرغم من تواجد هذه المخطوطات إلاّ أنّ الشيء الملاحظ هو أنّني لم أعثر في المدينة – أي تلمسان – على حرفيين يمارسون مهنة تجليد الكتب بالطريقة التقليدية، لكنّني وجدت بعض الأشخاص – ولا أسمّيهم حرفيين – أكثرهم يشتغل بالمكتبات والمطبعات يقومون ببعض المحاولات للتجليد ولكنّها – في رأيي – إنّها غير ناجحة ولا تمتّ بأيّة صلة لفنّ التجليد الأصيل؛ لأنّ التقنية المستعملة يغلب عليها الطابع التجاري على حساب الطابع الفني، هذا إذا علمنا أنّ الحرفي – قديما – كان يستغرق في بعض الأصناف من الكتب أيّاما عديدة لتجليد كتاب واحد فقط حرصا منه على الإتقان والإبداع.

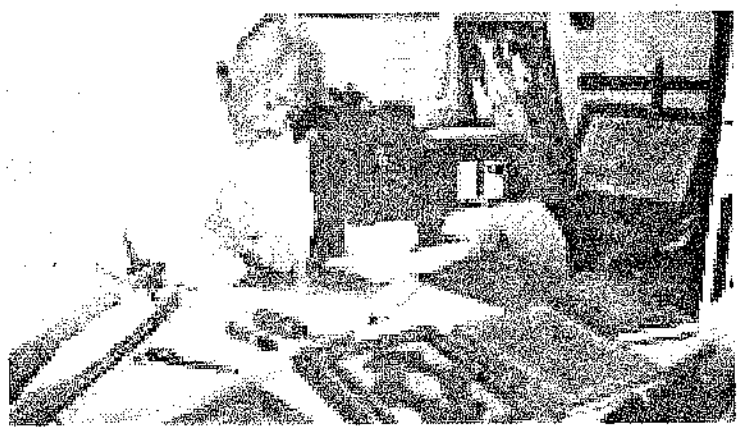

حرفي مختص في تجليد الكتب

أمّا عن نوعية الجلد الذي يستخدمه هؤلاء الأشخاص، فهو من النوع المصنّع لأنّه رخيص الثمن الشيء الذي يسمح لهم بالحصول على أرباح كبيرة، وقد يعمدون إلى زخرفة هذه الكتب فيستعملون أيضا طريقة السهلة وغير المكلّفة – سبقت الإشارة إليها – وهي طريقة الطبع بالطلاء (sérigraphie)، ولكن هناك مَن يستخدم طريقة الزخرفة بالتذهيب مستعملا في ذلك الأوراق الذهبية، ويتم ذلك بضغطها أو باستخدام أداة محمّاة.

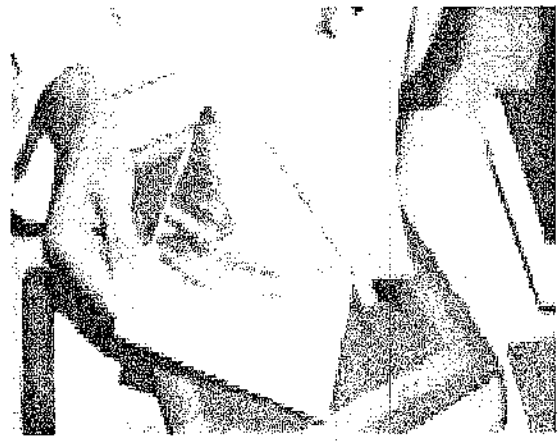

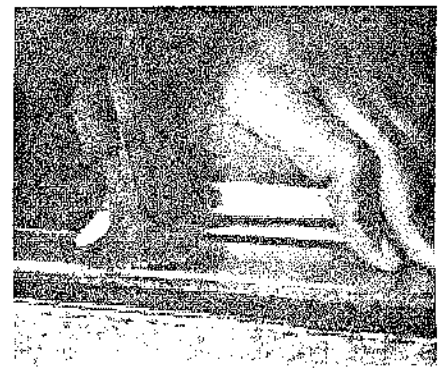

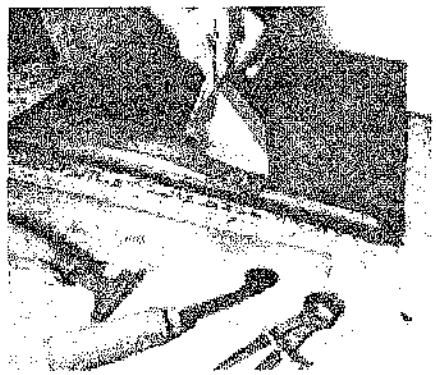

الزخرفة باستعمال الأوراق الذهبية

وفي الأخير، تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الصناعة هي في طريق الاندثار بالمدينة، وأنصح الشباب بتعلم هذه الحرفة للمحافظة عليها؛ لأنه بدون أن تنتقل فإنها لن تصل للأجيال القادمة.

صناعة سروج الخيل :

كانت الأحصنة العربية في الماضي تُجهز بأفضل الأدوات وأجمل المعدات في المناسبات الرسمية وغير الرسمية والأعياد الوطنية وحفلات الزواج، حيث تظهر الخيل في أبهى حلّة وهي تؤدي العروض الجميلة، ويمتطي الرّجال ظهورها، وهم يرتدون ملابس الفروسية.

ومن المعدّات الأساسية التي تُجهّز بها الأحصنة السروج، فهي صناعة اشتهرت بها مدينة تلمسان منذ زمن بعيد، فكان الناس يأتون من المدن المجاورة أو البعيدة لاقتنائها.

وتُصنع هذه السروج يدويا من قبل حرفيين مهرة؛ ثـمّ تُطـرز بـالخيوط الذهبية والفضية التي تزيدها جمالا ورونقا فتكون مَوْضعا للتباهي عند الفرسـان وحتّى عند الحرفيين السرّاجين أنفسهم.

السيّد : صاري فتحي

سـرّاج

وتجدر الإشارة إلى أنّ السّروج ثلاثة أنواع : السـرج الكبيـر والسـرج المتوسّط والسرج الصغير، مع الإشارة إلى أنّ السّرج المستعمل في تلمسان هـو من النوع المتوسّط. وأنّ تركيب سرج الفرس معقّد لأنّه يتكوّن من هيكل خشـبي (القربوس) ويسمّيها السرّاجون (العظمة) مُغطّى بجلد مجفّف ثمّ يغطّيـه غطـاء جلدي تليه زربية جلدية أو قماشية ثم غطاء ثالث، إلى جانـب اللجـام واللّبـان والوضين[1] المنسوج من الصوف والمكسوّ بجلد الضأن، فضلا عن لوازم الفارس

1 ينظر : صناعة المضفرات والمنسوجات الحلفاوية بالمنقطة السهبية من دائرة سبدو بولاية تلمسان : محمد تروزين، ص 14.

من جزمة ونطاف ومظل وجراب وجعبة، إلخ...

الوضين الذي يغطّي القربوس

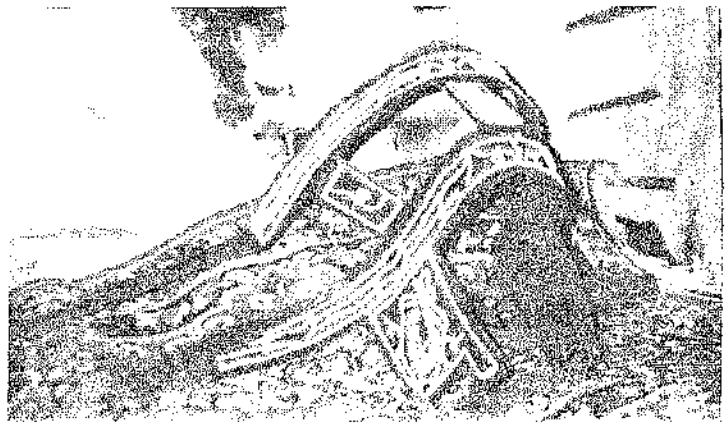

لجام مطروز بالخيط الذهبي

ولكن بمرور الزمن تناقص استعمال الأحصنة ولم تعدْ لها نفس الأهميـــة التي كانت تحظى بها قديما، ولهذا السبب تناقص عدد الحرفيين التقليديين القائمين على صناعة السرّوج، إذْ أنّ المدينة تَعُدّ سراجا واحدا ورث الحرفة عن أبيه وهو السيّد صاري فتحي.

عوامل ازدهار الصناعة الجلدية :

عَرفت الصناعة الجلدية في تلمسان فترة طويلة من الرقـــيّ وَالازدهـــار لتضافر عدّة عوامل كانت سببا في انتشار منتوجاتها على اختلاف أنواعها. وقـــد سبق أنْ بيّنت ذلك من خلال المراحل التاريخية التي مرّت بها الصناعات التقليدية في هذه المدينة.

اشتهرت تلمسان بالصناعة الجلدية كمَادةً أوّلية أو منتوج نهائيّ، فجلودهـــا على اختلاف أنواعها كانت معروفة في إفريقيا وفي بلدان أخرى بسبب القوافـــل التي كانت تأتي إلى المدينة محمّلة بالبضائع فيبيع أصحابها بضَاعتهم في أســـواق المدينة وَيشترون سلع أخرى – من بينها الجلود – لتسويقها فـــي مـــدن وبلـــدان أخرى، وهذا ما يُبرز أنّ تلمسان كانت تتمتّع باكتفاء ذاتي في كثير من المنتوجات.

وَمن العوامل ذات الأهميّة الكبيرة التي أدّت إلى ازدهار الصناعة التقليدية بتلمسان وخاصة الصناعة الجلدية :

* موقعها الجغرافي المتميّز الذي بين الشرق والغرب من جهة وبـــين الشـــمال والجنوب من جهة أخرى جعل منها – في عهود سابقة – مركزا تجاريا هامّا في إفريقيا، الأمر الذي أدّى إلى تطوّر المبادلات التجاريـــة، ومـــن ثـــمّ ازدهـــرت الصناعات التقليدية. وقد بقيت على تلك الحال لحقب طويلة إلى فترة الاســـتعمار

الأجنبي في كامل البلدان الإفريقية والذي كان يحاول طمس المعالم الحرفية الأصيلة؛ لأنّه كان يؤمن بأنّها إحدى الدّعائم الرئيسية لاستمرار الثقافة والحفاظ عليها.

* نمط المعيشة : كان المجتمع التلمساني كباقي المجتمعات الأخرى في إفريقيا يعيش حياة بسيطة كانت تستدعي استعمال أدوات ولوازم تقليدية، وتُلزم الفَرد في بعض الأحيان على صنع ما يحتاجه بنفسه، فالطبيعة كانت توفّر له كلّ ما يحتاجه من مواد لتلبية رغباته.

* الحفاظ على التراث : وهو ما أسمّيه بالجانب الروحي، فالحرفي الأصيل كان دائما متعلقا بحرفته وبعمله؛ فهو يؤمن بالرسالة " التي يجب عليه تبليغها للأجيال وتأدية دوره في المجتمع وصياغة مستقبلٍ يرتبط بالماضي و يحكم العقل لضمان رهانات المستقبل التي لا تنسلخ عن جذور الثقافة ورواسب الحضارات المندثرة "[1]، وعلى ذلك يُعدّ الإنتاج الحرفي حلقة أساسية في ربط الماضي بالمستقبل مرورا بالحاضر في بناء القيم والمعايير الحضارية.

وعلى هذا، فإنّ ازدهار الصناعات التقليدية والجلدية على الخصوص إنّما يرجع أساسا إلى تمسّك الحرفي بحِرفته لحقب طويلة على الرغم من كلّ ما عاناه من مشاكل وعقبات، ثمّ لإيمانه بالصّلة الروحية التي تربطه مع الثقافة، تلك

---

1 الاستهلاك الثقافي في مدينة تلمسان : أوراغي أحمد، رسالة ماجستير، 1999، ص 140-141.

الصلة البعيدة عن المصالح المادية المتمثّلة في تحقيق الربح والثراء.

* دُورُ الدّباغة : يرجع ازدهار الصناعة الجلدية في تلمسان أيضا إلى انتشار دور الدباغة التقليدية بالمدينة، إذْ إنّه كان يتواجد بالمدينة أربعة مدابغ حيث كانت تنتج كميات كبيرة من الجلود وتموّن بها كلّ الحرفيين من بلغاجيين وسرّاجين، فتوفّر مادة الجلد بكثرة من شأنه تشجيع الصناعة نفسها.

* السياحة : ومن العوامل الأخرى التي كانت طرفا في ازدهار الصناعة الجلدية – في السنوات الماضية – هو انتعاش السياحة. ولعلّ ما تزخر به تلمسان من آثار وأماكن تاريخية وسياحية كان سببا في توافد السيّاح على المدينة بأعداد كبيرة ومن مختلف البلدان كفرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها، ومن ثمّ شهدت الصناعات التقليدية والجلدية على وجه الخصوص تطوّرا ملحوظا بشهادة أصحابها.

أسباب ركود الصناعة الجلدية :

إذا أردنا أن نحصر الأسباب التي أدّت بالصناعة الجلدية في تلمسان إلى الركود، فلابدّ أن نقرنها بمجموع الصناعات التقليدية لأنّها تمرّ في أيّامنا بأزمة حادّة نتيجة تراكم عدّة عوامل لسنين طويلة، وقد أجبرت هذه الأزمة العديد من الحرفيين على غلق محلاّتهم بسبب قلّة الطلب وعدم رواج منتوجاتهم في السوق، كما تسبّبت في هجرة بعض الحرفيين – وخاصة المتمرّسين منهم – إلى ممارسة

أعمال أخرى تضمن لهم الاستقرار وخاصة دخلا دائما ومستمرا.

والجدول الموالي يبيّن ذلك من خلال عملية تشطيب الحرفيين من مركز السجل التجاري من سنة 1997 إلى 2000[1].

السنة / النشاط	1997	1998	1999	2000	المجموع
الصناعات التقليدية	125	177	332	84	718

ومن خلال هذا الجدول، نلاحظ بأنّ الرقم الإجمالي للتشطيبات مرتفع جدّا وهذا ما يدعو إلى الحيرة والقلق وإلى التساؤل عن مستقبل الصناعة التقليدية بتلمسان.

أمّا ركود الصناعة الجلدية على وجه الخصوص، فهو راجع أساسا إلى جملة من الأسباب من أهمّها :

* الجانب التكنولوجي : لقد أحدث التقدّم التكنولوجي الذي حملته الثورة الصناعية تغييرا كبيرا في جميع مجلات الحياة، وخاصة الجانب الصناعي. إنّ ظهور المواد المصنّعة كالألومنيوم والبلاستيك وغيرها من المواد التعويضية (Substituts) و وسائل الإنتاج المتطوّرة من آلات وأدوات ميكانيكية وطرق علمية حديثة في تسويق المنتوج وشهدته أثرت بالضرورة على عدّة نشاطات من الصناعة التقليدية التي أصبحت تصطدم بواقع الصناعات الحديثة التي يغلب عليها

1 Monographie de la Wilaya de Tlemcen; année 2001; p. 59.

لون المعاصرة وتأثير الغزو الثقافي وملامح التقليد لمجتمعات وثقافات غربية دخيلة.

* الجانب الاقتصادي : ظلّت الصناعة الجلدية لمدّة طويلة شأنها في ذلك شأن بَاقي الحرف الأخرى نشاطا تقليديا يطغى عليه الطابع الفني الثقافي، الشيء الذي أدّى إلى إغفال دورها في المجال الاقتصادي، فلو أعطيت لها العناية الكافية لكانت إحدى الصناعات التي يُعتمد عليها لجلب الأموال والعملات.

ولعلّ هذا من الأخطاء التي وقع فيها المسؤولون والسّاهرون عليها لفترة طويلة من الزمن أفقدها مركزيتها وأهميّتها الاقتصادية. وبالمقابل، فإنّ هذه الصناعة تشهد تطوّرا كبيرا في عدد من البلدان العربية كالمغرب وتونس وعمّان والبحرين وغيرها.

* الجانب الوظيفي : إنّ قلّة الاهتمام والعناية بهذه الصناعة لسنين طويلة أدّى حتما إلى تخلّي الحرفيين عن ممارستها، ومن ثمّ إلى تناقص عددهم في السوق المحليّة؛ حيث أصبحت ديمومة ممارسة إحدى الصناعات التقليدية والصناعة الجلدية على وجه الخصوص من الأمور الصعبة تحقيقها. ولم يُلاحظ هذا النقص إلاّ في السنوات الأخيرة، فالجهات الوصية قد فطنت لذلك وهي تحاول تَدارُك هذا العجز بكلّ ما لديها من إمكانيات وَوسائل.

والملفت للانتباه أنّ هذا القطاع يعُدّ عددا قليلا من المناصب الدائمة مقارنة

بميادين أخرى، إذْ أنّ الكثير من الحرفيين مُرغمون على مزاولة أعمال أخرى[1] لا علاقة لها بعالم الحرف حتّى يتمكّنوا من تلبية حاجاتهم العائلية اليومية، كما أنّ الدخل المتوسّط لهؤلاء الحرفيين يتَموْقع في أسفل سلّم المداخيل، وقد تأكّدْتُ من ذلك من خلال الزيارات الميدانية التي قمت بها لبعض الحرفيين.

كما أنّ عزوف الشباب عن ممارسة إحدى الصناعات التقليدية ومَن جملتها الصناعة الجلدية يُعَدّ من الأسباب التي كانت من وراء ركود وتقهقر هذه الأخيرة؛ فشباب اليوم يُدرك بأنّ تعلّمها يتطلّب وقتا طويلا وأنّ فرصة الحصول على منصب عمل دائم في هذا المجال من الأمور المستحيلة، فَهُم – إذن – يَعْمدون إلى ممارسة نشاطات حُرّة (كبيع السجائر في الطرقات مثلا) لا تمتّ بأيّة صلة للموروث الثقافي والحضاري والتاريخي لمدينة تلمسان، إنّها أعمال تضمن لهم في كثير من الأحيان أرباحا سريعة، ولكنّها تبقى – في رأيي – تجارة مؤقتة.

* الجانب المعرفي : لقد بقيت هذه الصناعة حكرا لسنوات عديدة على فئة معيّنة من المجتمع وهي فئة الشيوخ نساءا أو رجالا، فذَهابُهم أحدث اختلالا كبيرا في الوسط الحرفي؛ حيث يقرّ معظم الحرفيون بأنّ اختفاؤهم كان سببا في ضياع نسبة عالية من تقنيات الصنع القديمة، الأمر الذي أدّى – بمرور الوقت – إلى تدنّي

1 مقابلة مع السيّد حليمي حبيب، فإلى جانب حرفته فإنّه عامل مؤقت (حارس).

نوعية المنتوج من حيث جودته وإتقانه، ومن ثمّ قــلّة الطلب عليه.

وفي مقابل ذلك، نجد بأنّ استمرارية النزعة المُحافظة على أسرار تقنيات الصنع في أوساط بعض الحرفيين هي من دون أيّ شكّ إحدى العوامل التي عملت على ركود الصناعة الجلدية في تلمسان، إذْ أنّ القليل منهم مَن يريد نَقْل هذه التقنيات إلى غيره وكأنّهم يريدون بذلك ضمان بقائهم في السوق من جهة وحتّى لا يُنافسهم أحد في الصّنعة من جهة أخرى.

* المنافسة الحادة : أصبح لهذه الظاهرة في الوقت الراهن وزن كبير في عالم المبادلات التجارية، وقد عانت الصناعة الجلدية منها بسبب اختراق المنتوجات الأجنبية – بكلّ ما تحمله من صفات العَصْرنة – الأسواق المحلّية وحتّى الوطنية بكميات كبيرة وأثمان رخيصة يتقبّلها كلّ النّاس.

وهكذا أصبح المنتوج المحلّي في موقع ضعف، لعدم وجود دراسات ميدانية تَبْحثُ في مختلف التغيرات التي طرأت على المجتمع التلمساني وَخاصة في المجال الثقافي، فلا يخفى على أحدٍ أنّ " رواج صناعة دون أخرى يعود أساسا إلى التكوين الثقافي للمجتمع ودَوْر المعايير الثقافية في تركيزه وتدعيمه من خلال اقتنائه وترويجه أو استهلاكه أو مقاطعته والنفور منه تعبيرا عن عدم

مُسايرته للمعايير السارية "[1]. فالضعف هو لا يمكنه منافسة هذه المنتوجات المصنوعة من مواد مصنّعة تقلّ من تكلفة السلع وأسعارها، وهذا سبب آخر لتدهور الصناعة الجلدية بمدينة تلمسان.

* الإعلام والإشهار : انعدام قنوات الإعلام والإشهار المحلية المكتوبة والسمعية والمرئية التي تروج لمختلف المنتوجات الجلدية، لأنّ هذه الوسائل – كما هو معلوم – لها دور كبير في تغيير انطباعات وميولات المستهلك؛ إذْ أنّها تؤثّر بمرور الوقت على سلوكاته الشرائية وتعمل على توسيع السوق وتشجّع المبيعات وتُحفّز النّاس على الشراء.

وقد تأثّرت الصناعة الجلدية من هذا النقص الواضح في الوسائل الإعلامية والإشهارية المتخصصة، فغيابها أثّر سلبا على رواج منتوجاتها، ممّا أدّى إلى تَراجُعها يوما بعد يوم إلى أن وصلت إلى ما هي عليه من خمول وركود.

* مشاكل ما بعد التكوين المهني : إنّ أغلبية الشباب – وإن لم نقل كلّهم – الذي سبق له وأن تابع تكوينا مهنيا في الصناعة الجلدية على مستوى مراكز التكوين المهني، قد واجهته مشاكل وصعوبات عديدة حالت بينهم و بيْن تحقيق هدفهم المتمثّل بالدّرجة الأولى في فتْح ورشة لحسابهم. ولهذا فهُمْ في أمسّ الحاجة إلى العناية والمتابعة الميدانية والمراقبة المستمرة وما ينجرّ عنها من رعاية وتنشيط

---

1 الاستهلاك الثقافي في مدينة تلمسان : أوراغي أحمد، رسالة ماجستير، ص 142.

وتشجيع وتوجيه، بعيدا عن تلك النظرة الراسخة في أذهان بعض الأشخاص الذين يَرَوْن هذه الفئة من الحرفيين الجدد على أنّها فئة ثانوية في المجتمع بسبب فشلها في حياتها الدّراسية.

* إنشاء التعاونيات الحرفية : يعترف العديد من الحرفيون المتخرّجون من مراكز التكوين من نقص إمكانياتهم المالية التي تسمح لهم بإنشاء مشروع حرفي؛ لأنّ معظمهم – وإن لم نقل كلّهم – من الطبقة الفقيرة. ولهذا، فالكثير منهم فكّر في إنشاء تعاونية حرفية في إطار برنامج تشغيل الشباب الذي يسمح بتقديم قروض (القرض المصغّر مثلا) لأصحاب المشاريع، ولكن الأمر لم بالسهولة التي يرغبون فيها، فالمشكل الذي واجههم هو أنّ هذا الجهاز لا يموّل المادة الأولية (الجلود) ولا تدخل ضمن مستلزمات المشروع. ولعلّ هذا من الأسباب التي أعجزت شبابنا وأدّت به إلى النفور من الاستثمار في مجال الصناعة الجلدية أو غيرها من الصناعات التقليدية.

* عدم التفكير في إحداث معامل وَ ورشات على مستوى أكبر، إلى جانب تحديث وعصرنة المنتوج الجلدي المحلّي حتّى يُنافس السلع الأجنبية التي غزت أسواقنا، ولما لا وضع علامة تجارية جزائرية مثل ما هو معمول به في كثير من البلدان الأجنبية مثل هارمس Hermes و بيار كاردين Pierre Cardin وحتّى في بلدان عربية.

كلّ هذه الأسباب مجتمعة تُعاني منها الصناعات التقليدية والصناعة الجلدية على وجه الخصوص؛ فهيْ تعرقل إلى حدّ كبير السير الحسن لهذا القطاع، وإنْ لم تجد الحلول السريعة والتدابير الضرورية، فإنّ الكثير منها سوف يُصيبْه الشلل و من ثمّ الاندثار.

وَحتّى لا نكون مقصّرين في حقّ الساهرين على إنعاش هذا القطاع، لابدّ من الإشارة إلى أنّ جهودا كبيرة تبذلها عدّة جهات من أعلى المستويات إلى أسفلها بُغية النهوض بهذا القطاع ولِما لا جعلّه يُنافس ميادين اقتصادية أخرى.

الفصل الرابع

تمهيد :

لقد احتضنت مدينة تلمسان شطرا معتبرا من الحضارة الإنسانية منذ ميلادها في العصور القديمة، ومن كثرة ما تعاقبت المراحل الحضارية المختلفة على إقليم الولاية، بالإضافة إلى الآثار والمعالم العديدة الباقية هنا وهناك في ربوعها، فإنّ المجتمع التلمساني الحالي رغم خضوعه لسنّة التغيّر ومُجاراته لمتطلّبات العصر الحاضر ومُعايشته للواقع بواقعيته، أكسبته بالوراثة عن الماضي مهارات وخبرات وحرفا بالغة الأهمية (من الناحية التراثية خصوصا) في شتّى المجالات.

ولا يزال بعضها موجودا ومَحفوظا بتلقائية في نطاق الحياة الاجتماعية والاقتصادية القائمة، فيما آل البعض الآخر إلى الاضمحلال والزوال بفعل عوامل عديدة ذكرنا عددا منها في الفصل السابق.

وبهدف المحافظة على الحيّ من هذه الحرف، أو بالأحرى النهوض بها وترقيتها، وهذا ما أتوخّاه، ومحاولة بعث وتحريك ما تلاشى منها إذا أمكن ذلك سأورِد لاحقا بعض الاقتراحات التي أراها ضرورية لإخراج الصناعات التقليدية من دوامة الفراغ الذي تعشيه.

ومَن بين هذه الاقتراحات التي لابدّ للجهات الوصيّة على قطاع الصناعات

التقليدية عامة والصناعة الجلدية خاصة أنْ يوجّهوا أعمالهم نحوها :

عصرنة المنتوجات الجلدية :

ممّا لاشكّ فيه أنّ التطوّر العلمي والتكنولوجي أحدثا تغييرا في مختلف ميادين الإنتاج، فالتقدّم الذي عرفته الصناعات الكيميائية منذ ظهور بذور الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان له أثره الإيجابي على الصناعات التحويلية، الشيء الذي أدّى إلى إنتاج عدد هائل من المنتوجات الاصطناعية والتركيبية كالألومنيوم والبلاستيك وأنواع الورق والجلود المصنّعة التي تشبه في كثير من الأحيان الجلود الطبيعية. وبمرور السنوات غزت هذه السلع الأسواق وأصبحت تستعمل لإنتاج كلّ كبيرة وصغيرة يحتاجها أفراد المجتمع، فحلّت محلّ المنتوج الطبيعي الجيّد الصّنع، وإن لم نلاحظ ذلك الفارق في بعض الأحيان.

وقد استغلّ غيرنا هذه المنتوجات الاصطناعية على نطاق واسع وفي ميادين شتّى، من بينها الدّباغة وصناعة الجلود. ولقد تمكّنوا من تطويع هذه المادة فخلقوا منها فروعا إنتاجية قائمة بذاتها، وكلّ فرع منها مستقل عن الآخر بحيث يختص بإنتاج سلعة معينة. وقد توصّلتُ إلى حصر هذه الفروع في خمسة عشر فرعا :

Chaussures	الأحذية النسائية و الرجالية
Vêtements en cuir	الألبسة الجلدية
Le sac pour dames	حقائب النساء
Articles de poche, le portefeuille	منتوجات للجيب (محافظ)
Articles de voyage	منتوجات خاصة بالسفر
L'attaché case, la serviette	المحافظ
Les articles scolaires	اللوازم المدرسية
Articles de bureau (sous-main)	لوازم مكتبية
Sellerie, harnachement	السروج و ركائبها
Sacs de sport	اللوازم الرياضية
Articles pour chiens et chats	لوازم الحيوانات (كلاب وقطط)
Articles de pêche et chasse	لوازم الصيد
Articles de gainerie	التنجيد
Etuis et couvertures	أغمدة و غلافات
Ceintures	أحزمة

والملفت للانتباه أنّ بعض الحرفيين في تلمسان استهواهم الاقتباس والمحاكاة والتقليد لبعض من هذه الفروع، إلاّ أنّه عددهم لا يتعدّى أصابع اليد. فهم يعملون في منازلهم أو في ورشات خاصة يَصعب على مَن لا يعرف المدينة إيجادها. وَهناك معمل واحد بالمدينة متواجد بالمنطقة الصناعية (E.D.I.E.D. سابقا) تحول مؤخّرا إلى إنتاج بعض المصنوعات الجلدية وخاصة المحافظ النسائية، لأنه من المعلوم أنّ هذا المنتوج كثير الاستعمال من طرف هذه الشريحة.

* **صناعة الأحذية** : إنّ ارتفاع المستوى الحياتي وتغيّر النمط المعيشي الذي شهده أفراد المجتمع التلمساني نتيجة تأثرهم بالثقافة الغربية كان له أثره البارز على عاداتهم الشرائية وسلوكهم في اقتناء حاجياتهم اليومية من ملابس وأحذية وغير ذلك.

لقد اكتسبت الأحذية في أيّامنا سلعا أهمية كبيرة لم تكن تحظى بها في القديم، حيث أصبح التفنّن في صناعتها أمرا حتميا؛ ما دام المستهلك في بحث دائم عن الجديد. وهكذا أصبحت الأحذية منتوجا يغلب عليه طابع "الموضة" حيث تعدّدت الأنواع والأصناف وأصبح لكلّ صنف استعمال محدّد.

ومن هنا نلاحظ فارقا كبيرا في الذوق يفصل بين المستهلك والمُنْتِج، هذا الأخير الذي أصبح يُفضّل تَخَطّي الطلب بإنتاج الكميات الكبيرة وَالأصناف المتنوّعة عِوض أن يُنتجَ حسب الطلبيات، وإذا ما تجوّلنا في أسواق المدينة، فإنّنا

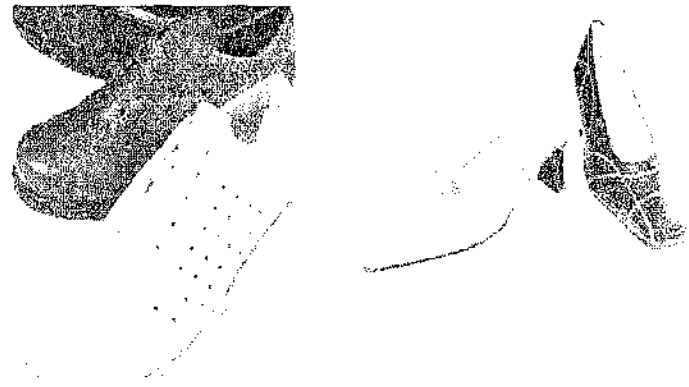

أحذية عصرية

نعثر على أنواع مختلفة من الأحذية سواء الرجالية أم النسائية وهي في تجدّد وتغيّر دائمين تبعا للأذواق وتماشيا مع الفصول الأربعة.

وَ لكنّ يجب ألاّ تنحصر الأمور في عملية الإنتاج فقط، فالتسويق يلعب دورا هاما في أيّ صناعة من الصناعات، فمن الأجدر أن يواكب هذه العملية بحثٌ دائم عن قنوات البيع وتسويق المنتوج وَ التي بدونها لا يمكن الاستمرار في الإنتاج[1]، فعلى سبيل المثال يعرف تسويق الحذاء الرجالي في تلمسان في السنوات الأخيرة نوعا من الركود مقارنة بالحذاء النسائي، وهذا ما يلزمهم على بيعها في مدن بعيدة.

* **المحافظ** : تنقسم إلى عدّة أنواع، فمنها المحافظ الخاصة بالجيب التي تدخل ضمن الصناعة الجلدية الصغيرة (Petite maroquinerie) والمحافظ النسائية ومحافظ السفر، بالإضافة إلى أصناف أخرى لها استعمالات متعدّدة كالمحافظ الإدارية والمدرسية والرياضية وغيرها.

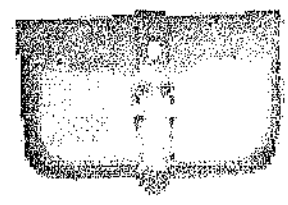

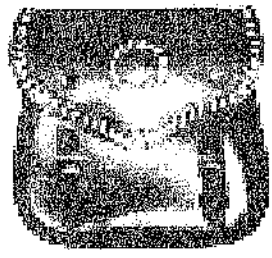

1 وهذا رأي كل الحرفيين الذين التقيت بهم على اختلاف اختصاصاتهم.

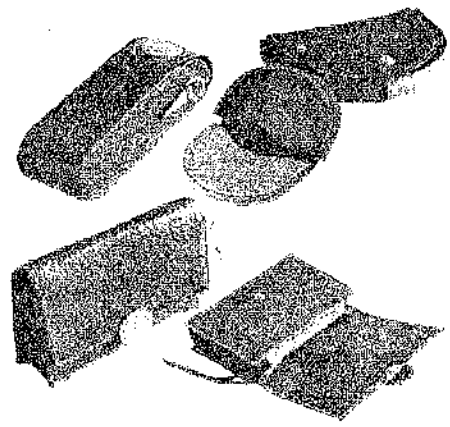

محافظ للجيب

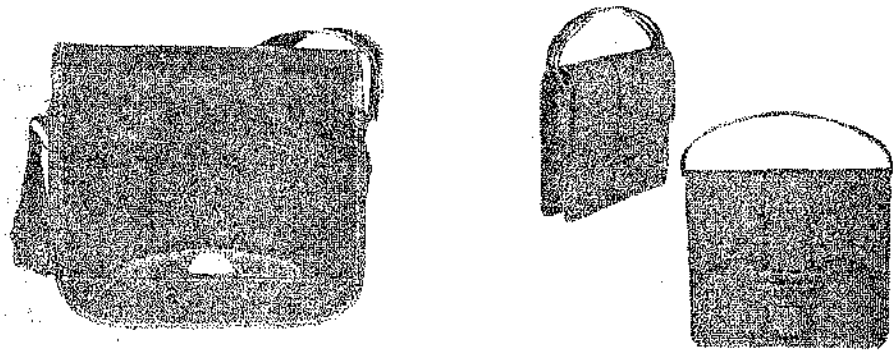

محافظ نسائية

وإلى جانب هذه النوع من المحافظ، هناك نوع آخر لابدّ من إعطائه الأهمية التي يستحقها في السوق، فهو يتصّل أساسا بصناعة محافظ السفر.

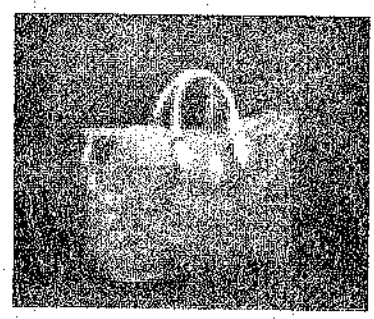

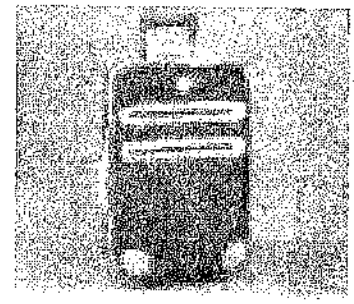

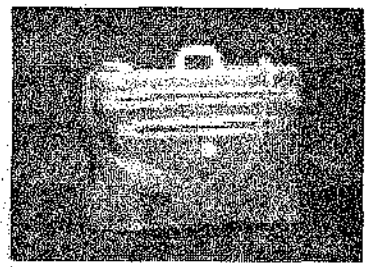
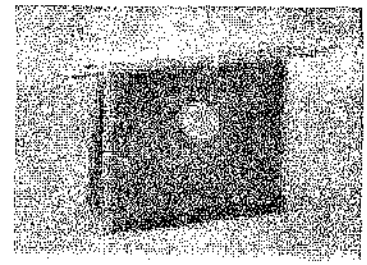
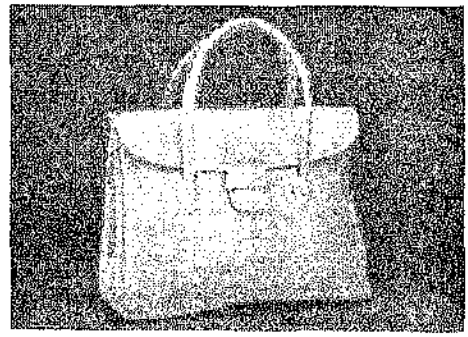

محافظ السفر

* **الملابس الجلدية** : شهدت هذه الصناعة تطوّرا كبيرا في السنوات الأخيرة في عدّة بلدان أجنبية بسبب التقدّم التكنولوجي الذي أحرزته ومكّنها من إنتاج أنواع من الجلود المصنّعة الخاصة بالملابس. وقد أصبحت هذه الصناعة في كثير من البلدان إحدى الأسس التي يرتكز عليها اقتصادها، فهي في تطوّر دائم حيث تتماشى والتقدّم المعيشي للمجتمع.

والملفت للانتباه أنّ هذه الصناعة لم يُعطى لها حقّها في الجزائر وتلمسان خاصة، إذ أنّني لم أعثر على معمل واحد بالمدينة على معمل واحد يختص بصناعة الملابس الجلدية، وهذا أمر مؤسف للغاية. فلماذا لا تفكّر الجهات الوصيّة

الرسمية بإنشاء ولو معملا واحدا لإنتاج بعض أصناف الملابس – ولا أقول كلّها – فتدعّم بذلك الاقتصاد المحلي ولِما الاقتصاد الوطني، ومِن ثمّ تكون تساهم في خلق مناصب شغل دائمة وتؤدّي بالضرورة إلى امتصاص ولو نسبة قليلة من الشباب البطّال.

جاكيت من الجلد المصنّع

سراويل من الجلد المصنّع

ومن بين المنتوجات الأخرى التي تدخل ضمن الصناعات الجلدية والتي لا تقلّ أهمية عن سابقاتها : القفازات، فهي لِوحدها بإمكانها أن تشكّل فرعا من فروع الصناعة الجلدية. وللأسف الشديد، فإنّ أسواقنا إنّما تكثر بها السلع الجدلدية المستوردة بكميات كبيرة وكأنّها تُنتنتج ببلادنا.

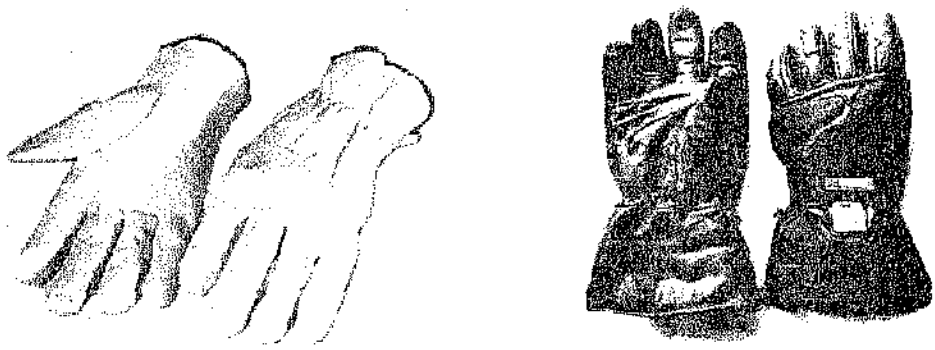

قفازات رجالية

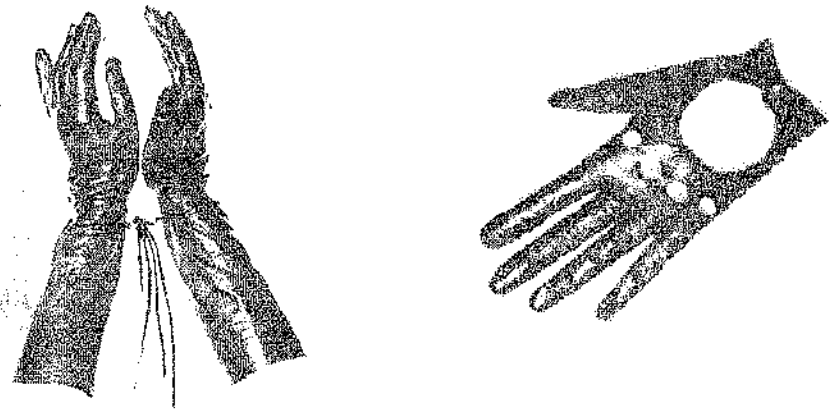

قفازات نسائية

وبالإضافة إلى هذه المصنوعات هناك الأحزمة الجلدية التي أصبح لها بظهور عصر الموضة مكانة كبيرة ضمن مجموع الملبوسات، فهي تُهيكل اللباس على جسم حامله.

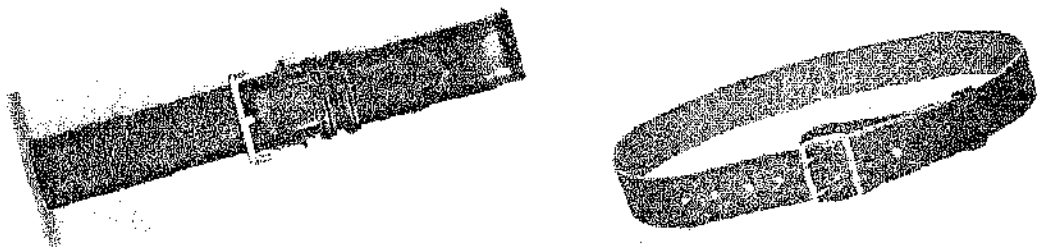

وتجدر الإشارة إلى أنّني لم أعثر بالمدينة على أيّ حرفي مُختص في صناعة الأحزمة الجلدية، وإن وُجِد فهو يعمل يعمل بعيدا عن أعين النّاس دون أيّة وثيقة إدارية ترخّص له ممارسة هذه الحرفة، فيكون ذلك إمّا في منزله أو بمحلّ متواجد في أزقة يصعب العثور عليه فيها.

هذه بعض المصنوعات الجلدية الحديثة وإن كانت في الأصل قديمة؛ لأنّ الإنسان القديم بدون أيّ شك قد استعملها ولكنها كانت بسيطة لعدم تحكمّه في تقنيات الصنع وفي نقص الأدوات. وإذا استعمالها لم يتغيّر، فإنّ شكلها وحجمها وألوانها قد تغيّرت بفعل التحضّر والموضة، ففي الوقت الحاضر نشاهد تقدّما كبيرا في المواد وتعدّدا واسعا في وسائل الإنتاج، الشيء الذي ساعد على تطوير الإنتاج وتحسين المنتوج.

وللأسف الشديد، عرفت كثير من البلدان كيف تستغلّ هذه المواد والوسائل بحيث وظّفتها في كلّ الصناعات ومن بينها الصناعة الجلدية، فاستطاعت أن تصنع أشياء قديمة بتقنيات حديثة أصبح لها مكانة مرموقة في العالم كلّه، وأقصد بذلك تلك المنتوجات الجلدية التي تُباع بأثمان باهضة تحت أسماء عالمية مشهورة يعرفها العامة والخاصة مثل : Babybotte, Rickers, Labelle, Adidas, SAC, Ted Lapidus, Riecker, Geg-France, Sylvain-Lefèvre, etc...

والسؤال الذي يُطرح وأظنّه يبقى مطروحا لسنوات عديدة أخرى ما لم تُتّخذ الإجراءات الضرورية والتدابير اللازمة للنهوض بقطاع الصناعة التقليدية، وهو : لماذا لا نتبّع خطى هذه البلدان في تطوير صناعتنا التقليدية والصناعة الجلدية على وجه الخصوص ؟

التكفّل الحقيقي بقطاع الصناعة الجلدية :

لقد أحدثت الدولة فرصا كثيرة في كل المدن الجزائرية وفي تلمسان على وجه الخصوص بغرض النهوض بقطاع الحرف والصناعات التقليدية من خلال إصدارها للقوانين والنصوص التشريعية التي تضبطه وتسيّره وخاصة في الفترة الممتدة من 1992 إلى 1997، ومن بين الأمور التي أقرتها هذه القوانين :

- الإعفاءات والتخفيضات الجبائية.
- إمكانية الحصول على دعم مالي لشراء العتاد إذا كان النشاط يخصّ صناعة تقليدية فنية.
- الدعم والمتابعة من طرف غرف الصناعة التقليدية والحرف عند إنشاء مؤسسة مصغّرة أو تعاونية حرفية.
- تسهيل الإجراءات الجمركية وتخفيض الرسوم عند تصدير المنتوجات التقليدية.
- المشاركة في المعارض الوطنية والدولية لعرض وبيع المنتوج التقليدي.

وعلى الرغم من هذا كلّه، تبقى - في رأيي - هذه الإجراءات حبرا على ورق وَ بدون أيّة فاعلية ما دام النشاط الحرفي مُسيّر من طرف أشخاص لا علاقة لهم بالصناعات التقليدية. والواقع يبرز ذلك، إذْ أنّ الكثير من هذه الحرف ومن بينها الصناعة الجلدية هو في طريق الاندثار، أو قد اندثر.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أنّ الخطاب الذي استقيته من الجهات الرسمية الساهرة على الصناعة التقليدية في تلمسان يدلّ على أنّ القطاع بخير ولا يعاني من أيّة مشاكل، ولكن في المقابل هناك خطاب جمهور الحرفيين الذين يشتكون يوميا من قلّة الاهتمام والعناية وخاصة من عدم استقرارهم المهني. فأين يكمن الخلل إذن ؟.

وعلى أيّة حال، فإنّني أقترح بعض التدابير التي أراها ضرورية للنهوض بقطاع الصناعة الجلدية في تلمسان، ولِما لا استرجاع مكانتها وقيمتها الإنتاجية، و من بين هذه الإجراءات أورد أهمّها :

* التكـــوين :

من المعلوم أنّ الصناعات التقليدية كانت في القديم تنتقل من شخص إلى آخر عن طريق التلقين المباشر داخل الورش والدكانين أو بالممارسة تحت رعاية صاحب الصنعة "المعلّم" الذي كانت له مكانة معتبرة في المجتمع، ويكنّ له الناس كلّ الاحترام والتقدير.

ولكن بمرور الوقت ونتيجة للتحوّلات والتغيّرات الاجتماعية والاقتصادية وخاصة الثقافية التي طرأت على المجتمع التلمساني بدأ عدد الحرفيين يتناقص، فمنهم من انتقل إلى رحمة الله، ومنهم من أصبح في سنّ لا تسمح له بممارسة أيّ

عمل، ومنهم مَن تخلّى عن حرفته طواعية لأسباب عديدة ومتنوّعة. وهكذا أصبح العمل اليدوي والحرفي يفقد قيمته شيئا فشيئا إلى أن أصبح محور حديث العامة والخاصة من حرفيين وإداريين وغيرهم.

وفي محاولة للحفاظ على هذا الإرث الحضاري الذي تركه لنا آباؤنا وأجدادنا، كان لزاما على الجهات الوصية أن تجد حلاّ للنهوض بالصناعة التقليدية بعد أن أحسّت بأنّ خطر الاندثار والزوال يحوم بها، فقامت بإدراج العديد من النشاطات الحرفية ضمن برامج مراكز ومَعاهد التكوين المهني من خلال إعطاء دورات تكوينية تختلف مدّتها من نشاط إلى آخر على أنْ يتخرّج التلميذ بشهادة في آخر التكوين تسمح له بالولوج في الحياة العملية.

ولكنّ ما أراه مُنافيا للمنطق هو أنّ هذه المراكز تستقطب في جميع الأحوال تلاميذ فَشِلوا في مشوراهم الدراسي، حيث عند دخولهم إلى المركز لا تكون لهم استعدادات فنية ولا ميولات اتجاه حرفة من الحرف، فعادة ما يكون الاختيار عن طريق الصدفة ودون أيّ اقتناع أو بالإكراه من طرف أوليائهم. ولهذا نجد التلميذ يخوض في عالم لا يعرف عنه أيّ شيء، ويبقى نجاحه أمرا نسبيا.

وعلى هذا الأساس، يجب أن يكون الاهتمام بالحرف التقليدية في طور متقدّم من الحياة الدراسية للتلميذ، ويكون ذلك ممكنا إذا ما أحدث المعنيون بالأمر

في بلادنا تعديلا على المنظومة التربوية من خلال إدماج النشاطات الحرفية ضمن برامج التربية الفنية في المدارس الإبتدائية والإكماليات والثانويات كما هو معمول به في كثير من البلدان، وإعطائها الأهمية نفسها التي تحظى بها المواد الأخرى وحتّى لا تُهمّش من طرف التلاميذ ويظنّونها مواد للترفيه والتسلية. فمن المعلوم أنّ التربية الفنية " تساعد على تنمية قدرات الطلبة وقابليتهم الفنية وترقية مهاراتهم اليدوية، وتجعل نموّهم الفني ومهاراتهم اليدوية تنمو نموّا متوازنا في جميع نواحي الفنون التشكيلية والتطبيقية "[1].

ففي حالة إخفاق التلميذ في حياته الدراسية يكون قد اكتسب خبرة في إحدى النشاطات الحرفية تمكّنه من مواصلة مشواره التعليمي داخل مراكز التكوين المهني دون أيّ عناء في اختيار تخصّصه لأنّه يكون مهيّأ لذلك؛ ومن هنا نخلق جيلا جديدا من الحرفيين يضمن للحرف التقليدية البقاء والدوام.

التسويق :

من الأمور التي يعاني منها الحرفيون على اختلاف صنائعهم مشكلة تسويق منتوجهم التقليدي، الذي لا يتعدّى تسويقه – وفي جميع الأحوال – السوق المحليّة. وبالفعل، لقد أصبح الطلب على المصنوعات التقليدية – في السنوات

---

1 الرسم والأشغال اليدوية : محمد حسين جودي، ص 115.

الأخيرة – يعرف تقهقرا ملحوظا حيث تناقص كلّية وبصورة كبيرة، ولعلّ السبب في ذلك يرجع أساسا إلى التغيّر الذي طرأ على السلوكات الاستهلاكية لأفراد المجتمع والتي تعود – هي الأخرى – إلى التغيّر الحاصل في نمط معيشتهم بفعل " الغزو الثقافي، وذلك ما جعل النّاس يتعدّون تدريجيا على الأصول الراسخة في الثقافة ويتنافسون على التقليد الأعمى للثقافة الغربية "[1].

ويَعرف حرفيّو الصناعة الجلدية في تلمسان – في الوقت الحاضر – مشكل تسويق منتوجهم التقليدي، وهو المشكل الأكثر انتشارا في أوساط هذه الفئة من المجتمع. فلقد أصبح هذا العائق – على حدّ تعبير أحدهم – منغرسا في حياتهم المهنية ويتعايشون معه، إذ لا خيار لهم إلاّ الاستمرار في عملهم ما دام أنّهم لم يجدوا البديل.

وعلى الرغم من ذلك، لقد أوجد الحرفيون حلاّ مؤقتا لهذا المشكل، وذلك باتّباع طريقة الإنتاج حسب نظام الطلبيات (Commandes)[2]، الأمر الذي يجعلهم في غِنًى عن إنتاج كميات كبيرة من السلع؛ لأنّ ذلك يقتضي تخزينها وتكديسها وهذا ما لا يقدر عليه الحرفي البسيط، باعتبار إمكانياته المادية لا تسمح بذلك.

---

1 الاستهلاك الثقافي في مدينة تلمسان : أوراغي أحمد، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، 2000، ص 155.

2 مقابلة أجريتها مع السيّد حليمي حبيب حرفي في الصناعة الجلدية بتاريخ 2002/03/25.

كما أنّ الصعوبة التي وجدها الحرفيون في تسويق منتوجه قد أجبرت العديد منهم على التعامل مع وسطاء تجاريين يمتلكون محلاّت بوسط المدينة، يبيعون لهم منتوجاتهم بأثمان رخيصة على الرغم من جودتها ودقّة إتقانها، ولكنّ الحرفي راض على هذا التعامل ما دام أنّه وجد طريقة للتخلّص من إنتاجه.

ولقد عمدَ بعض الحرفيين إلى التعاقد مع مسؤولي غرفة الحرف والصناعات التقليدية اقتناعا منهم بأنّها يمكن لها مساعدتهم في تسويق منتوجهم، حيث تسمح لهم بوضع سلعهم في قاعة العرض المتواجدة على مستوى المقرّ من أجل بيعها؛ إلاّ أنّ ثمنها يُحدّده مسؤولو الإدارة لأنّ لها في ذلك قسط من الأرباح يكون في بعض الأحيان – حسب تصريح بعض الحرفيين – أكبر ممّا يربحه الحرفيّ نفسه، ولهذا نجد أنّ البعض الآخر لا يُحبّذ هذه الطريقة. ففي اعتقادي أنّها لا تخدم مصلحة الحرفي ولا مستقبل الحرف التقليدية بتلمسان.

وبناء على ما تقدّم لا يمكن لأيّ مجهودات أو أنشطة في المجال الإنتاجي وخاصة في الصناعة الجلدية أن تنجح إلاّ بوجود استراتيجيات مناسبة وعلى المستوى التسويقي خصوصا، ذلك أنّ التخطيط السليم للتسويق بعناصره المختلفة هو الضمانة الأكيدة لدوام هذه الصناعة من جهة وكرافد اقتصادي من جهة أخرى، فلابدّ من وجود مبادرات ومشاريع وخطط مدروسة لتطوير المصنوعات

الجلدية وعصرنتها لتتماشى ومتطلّبات العصر، وتسويقها وترويجها في الأسواق المحلية والوطنية والعالمية.

ومن الإجراءات التي أراها مناسبة لحلّ مشكل التسويق، والتي يمكن أن تقوم بها الجهات الوصيّة على قطاع الصناعة التقليدية عامّة والصناعة الجلدية على وجه الخصوص :

* أوّل إجراء يمكن أن يقوم به الساهرون على تسيير هذا القطاع تجميع الحرفيين في فضاء إنتاجي واحد من خلال تخصيص ورشات صغيرة أو دكاكين تكون – من الأفضل – وسط المدينة أيْن يكثر الراجلون والزائرون، الشيء الذي يعيد لهم الثقة في النفس والرغبة في الابتكار والإبداع، فتنفتح أمامهم فرص تسويق منتوجهم التقليدي، وليس تهميشهم بوضعهم في أماكن بعيدة عن كلّ حركة[1].

وما من شكّ أنّ الاحتكاك المباشر للحرفي بأفراد المجتمع سيؤدّي حتما إلى تغيير نظرتهم إليه، وذلك باسترداد قيمته ومكانته التي فقدهما منذ زمن بعيد. ومن ثمّ تحسين وضعيته الاجتماعية التي لم تتحسّن منذ أنْ عرفت الصناعات التقليدية ركوضا في كثير من المجالات.

---

1 زيارة ميدانية لسوق الخردوات بحي أغادير أين تتواجد بعض الورشات للصناعة التقليدية، 2002/03/28.

* ولعلّ من أحسن الإجراءات التي يمكن اتّخاذها لحلّ مشكل التسويق : التخصّص والاحتراف : وهو أن يتخصّص الحرفي في إنتاج سلعة واحدة أو مجموعة متقاربة من السلع يجد نفسه فيها أكثر تحكّما ودقّة؛ لأن ذلك يسمح بانخفاض تكاليف الإنتاج وارتفاع درجة جودته وإتقانه، فيسهل على الحرفي تسويق منتوجه وحتّى إنْ كان بأثمان غالية.

* وهناك طريقة أخرى أكثر عصرنة عرفت نجاحا كبيرا في كثير من البلدان المتقدّمة كالولايات المتّحدة وكندا وحتّى في بلدان عربية كالمغرب الأقصى وهي التسويق عن طريق التجارة الإلكترونية (Internet)، ومعلوم أنّ ذلك لا يتأتى إلاّ بإنشاء مواقع (Sites) شخصية أو جماعية للحرفيين يعرضون فيها مختلف منتوجاتهم، حيث تكون تحت تصرّف عدد كبير من المهتمين بالصناعات التقليدية ومن المستهلكين على المستوى الوطني والعالمي خاصّة.

* ويجب أيضا مساعدة الحرفيين ماديًّا عند مشاركتهم في المهرجانات والمعارض الوطنية والدولية لأنّ الكثير منهم ليست له إمكانيات للتنقّل أو لإنتاج كميات كبيرة من السلع، ولهذا يجب أن تكون هذه المساعدات في وقت يسمح للحرفي أن يستعد لمثل هذه التظاهرات الثقافية.

* وآخر إجراء أظنّه أمرا مهمّا في نجاح عملية التسويق وهو أن ينظّم ويهيكل

الحرفيون أنفسهم في إطار رسمي يسمح لهم بضبط مشاكلهم وحلّها بكلّ سهولة؛ لأنّ العديد منهم ينشط بمنازلهم أو في دروب وأزقّة يصعب حتّى على ابنِ المدينة العثور عليهم. ويتأتى ذلك من خلال إنشاء " جمعية " ذات أساس متين؛ حيث تكون مشكّلة من حرفيين يحظون بسمعة معترف بها وتقدير من طرف الهيئات الإدارية. وقد تساعد هذه الجمعية على وضع إحصائيات دقيقة تمكّن أصحابها من تقييم قطاع الصناعة التقليدية عامّة والصناعة الجلدية خاصة في أيّ وقت من الأوقات، وتمكّن الحرفيين أنفسهم من جمع شتاتهم، ولِما لا حَـلّ جميع مشاكلهم وخاصة مشكل التسويق.

السياحة :

لا ينكر أحد منّا بأنّ للسياحة دورا كبيرا في دفع قطاع الصناعة التقليدية إلى الأمام، فكِلاهما يُعدُّ تكملة للآخر. ولهذا لابدّ من إيجاد حلول عاجلة للنهوض بالقطاع السياحي في بلادنا وتلمسان على وجه الخصوص، ويتأتى ذلك بتوفير الإمكانيات المادية والبشرية وخاصة الاستقرار الأمني. فكل هذه العوامل من شأنها أن تخلق المناخ المناسب لتوافد السيّاح على زيارة المدينة، ومن ثمّ يساهمون بصورة غير مباشرة من خلال اقتنائهم لشتّى أنواع المنتوجات التقليدية والحديثة في ديمومة الصناعة التقليدية وبقائها.

وَ قد عبّر الميثاق الوطني على هذه الفكرة حيث جاء في إحدى نصوصه :

" لقد أصبح من الآن بل من الضروري إيجاد صيغ متميّزة كفيلة بتطوير السياحة تطويرا يستجيب أحسن استجابة للاحتياجات المتعدّدة والمختلفة المعبّر عنها في هذا المجال. إنّ توسيع وظائف السياحة بفضل تنشيط سليم التصوّر يشكّل نوعا من أنواع ترقية الثقافة والصناعة التقليدية المحلية، والتراث الوطني، بشكل عام..."[1].

أمّا فيما يخص التشريعات المسيّرة لهذا القطاع، فقد تداركت الدولة – وقد سبقت الإشارة لذلك – النقص الذي كان تعاني منه الصناعة التقليدية، وذلك بإصدارها لجملة من المراسيم والقوانين من شأنها هيكلة وضبط تسيير هذا القطاع.

إنشاء المدابغ :

ممّا لا ريب فيه أنّ ازدهار صناعة الجلود والصناعة الجلدية في وقت من الأوقات بتلمسان إنّما يعود بالدرجة الأولى إلى وجود عدد كبير من دُور الدّباغة. ولقد كان لهذا المدابغ أهمية كبيرة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية للمدينة؛ فهي من جهة كانت تستقطب عددا كبيرا من العمال مُساعدة بذلك على امتصاص البطالة، ومن جهة أخرى كانت تموّن الحرفيين بالجلود الطبيعية، ولعلّ هذا ما يفسّر العدد الهائل من البلغاجيين والسرّاجين الذين كانوا ينشطون بتلمسان.

---

1 الميثاق الوطني، 1986، ص 185.

ولكن اختفاء هذه المدابغ أحدث انقلابا على الصناعة الجلدية، حيث أصبحت تتراجع يوما بعد يوم إلى أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم م خمول وركود. وإذا افترضنا بأنّ هذه المدابغ هي التي أعطت تلمسان شهرتها في مجال الصناعة الجلدية، فلماذا لا يفكّر المعنيون بالأمر في بناء ولو مدبغة واحدة حديثة عِوض أن تبقى المدينة دائمة الارتباط بمدينة وهران في مجال صناعة الجلود ؟.

الصناعة الجلدية ودورها في التنمية الاقتصادية :

ممّا لا شكّ فيه أنّ الصناعة التقليدية والصناعة الجلدية على وجه الخصوص قد شكّلت – في الماضي – إحدى المصادر الهامّة في الاقتصاد المحلّي لتلمسان، فقد احتلّت مكانة مرموقة وأهمية بالغة في المبادلات التجارية لأفراد المجتمع كلّه. ولعلّ ما يُبرز هذه الأهمية هو انتشار الحرفيين المستعملين للجلود في عدّة أماكن من المدينة كالسرّاجين والبلغاجيين؛ كما أنّ النمط المعيشي التقليدي الذي كان يطغى على المجتمع التلمساني ساعد على ازدهار هذه الصناعة بحيث كانت تعدّ أحد الموارد الذي يَعتمد عليها الفرد في تلبية حاجياته اليومية.

ومن هنا تظهر الوظيفة الاجتماعية-الاقتصادية التي يمكن أن تلعبها الصناعة الجلدية على مستوى هذين المستويين، فلو وُجّهت الوجهة الصحيحة لَكانت قادرة على خلق مناصب عمل دائمة، ومن ثمّ امتصاص البطالة التي يعاني

منها شباب المدينة، كما أنّها قادرة على خلق الثروات وتوفير مداخيل بالعملة الصعبة ولما لا تكون البديل الأمثل لقطاع المحروقات في الجزائر لأنّها قادرة – لو استغلّت الاستغلال الأمثل – على أن تساعد بشكل من الأشكال في تقوية وتوجيه الاقتصاد المحلّي وتطويره.

والحقيقة أنّه إذا كان أغلب شبابنا – اليوم – لا يولي أيّ اهتمام بالموروث المادي الثقافي للمدينة وخاصة الصناعة التقليدية على اختلاف اختصاصاتها، فإنّ السبب يعود بالدّرجة الأولى إلى فقدان مركزيتها وقيمتها الاقتصادية وكذلك تهميشها نتيجة إعطاء الأولوية للصناعات الحديثة التي تعتمد على التكنولوجيا ووسائل الإنتاج المتطوّرة، ولأنّ المسؤولين لم يتّخذوا الإجراءات اللازمة لإنعاشها إلاّ في وقت متأخر بعدما أحسّوا بخطر زوالها واندثارها.

ومن هذا المنطلق، لابدّ أنْ تتساءل الجهات الوصية على قطاع الصناعة التقليدية – وخاصة الصناعة الجلدية – عن موقعها في جدول المعاملات والمبادلات التجارية المحلية والوطنية والعالمية.

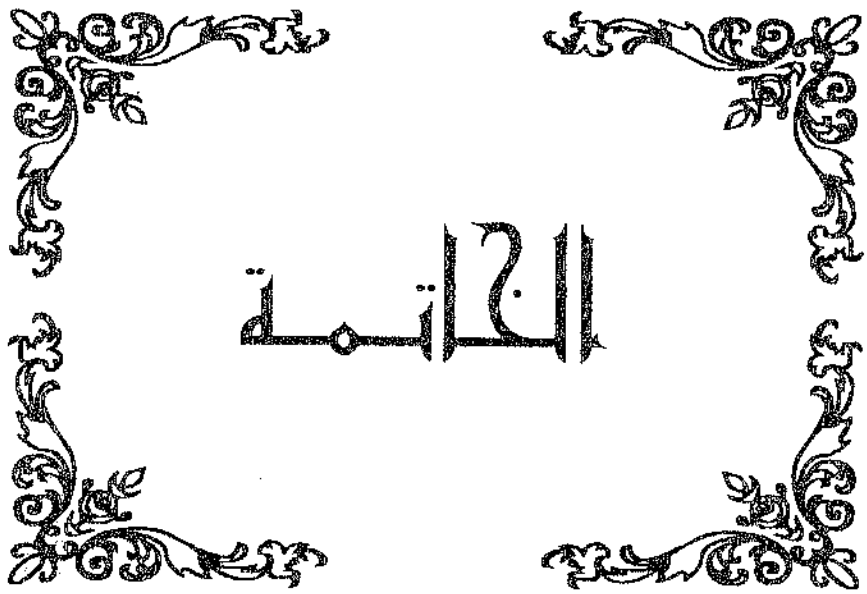
الخاتمة

الخاتمة :

ممّا لا شكّ فيه أنّ استعمال الجلود يعود إلى بداية تاريخ الإنسانية، فقد عرف الإنسان الأوّل كيف يستغلّ هذه المادة منذ أن أحسّ بالحاجة الملحّة إلى حماية جسمه من كلّ المؤثّرات التي تحيط به، وخاصة الظروف الطبيعية القاسية التي عاشها ويَعيشها أيّ إنسان كالبرد و الحرّ و غيرهما.

إنّ الإنسان بحكم بدائيته كان يمتهن الصّيد لتلبية حاجاته اليومية منها، وذلك باستعمال لحومها في غذائه وجُلودها وفرْوها في حماية نفسه، ونَظرا لتطوّر متطلّباته كَمًّا و نوعا نتيجة زيادة عدد أفراد أسرته اهتدى إلى طريقة أسهل وأكثر تحضّرا وَهي تربية الحيوانات، هذه الطريقة التي أجبرته على عدم الانتقال، بل الاستقرار وَالتمركز، فمكّنته من تقويـم حياته المعيشية وتأمين مسيرته التاريخية.

لقد استطاع هذا الإنسان أن يصنع من جلود هذه الحيوانات باستعمال وسائل إنتاج بسيطة عدّة أشياء استخدمها لأغراض متنوّعة، وأكثرها نفعية كالأواني والأدوات المنزلية المختلفة، ولعلّ هذا ما يبرز بأنّ الإنسان الأوّل كان حرفيا، بل كان محتّم عليه بأن يكون حرفيّا من أجل إشباع الحاجات الذاتية لأفراد أسرته. وَعلى هذا الأساس دخلت الجلود في غرف الصناعات التقليدية.

وبمرور العصور، أصبحت تحتلّ الصناعة الجلدية بكلّ ما تـنتجه من مصنوعات مكانة عالية عند كثير من الشعوب والأمم وخاصة من الناحية الاقتصادية، حيث تعدّ الجلود في العديد من البلدان – وفي الوقت الراهن – واحدة من السلع التي تعتمد عليها في صادراتها ومبادلاتها التجارية الخارجية.

وتلمسان من هذه الشعوب التي نالت حظّها من هذه الصناعة، فقد عرفت المدينة استعمال هذه المادة في صناعتها التقليدية منذ زمن بعيد، وقد بيّنت ذلك من خلال المراحل التارخية التي مرّ بها هذا النشاط ابتداء من القرون الوسطى إلى يومنا هذا.

لقد مرّ هذا النشاط – كباقي الصناعات الأخرى– بفترة طويلة من الزمن عرف فيها ازدهارا ورقيّا كبيرين جعلا من تلمسان قبلة للقوافل التجارية التي كانت تتوافد على أسواقها لاقتناء البضائع ومن بينها الجلود التي كانت تنتجها دور الدباغة المنتشرة في حوَافِ المدينة.

ولكن هذا الانتعاش الذي عرفته الصناعة التقليدية عامّة والصناعة الجلدية على الخصوص بدأ يتناقص شيئا فشيئا، وخاصة منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، هذه الفترة التي ظهرت فيها الثورة الصناعية التي حملها معه المستعمر والتي أحدثت عدّة تغييرات في المجال الاجتماعي والسياسي والثقافي

وخاصة الاقتصادي، دون أن ننْسى ما حملته من تطوّر تكنولوجي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الاستعمار منذ دخوله مدينة تلمسان عمد إلى إثبات وجوده من خلال :

- تغيير التصميم العمراني للمدينة وذلك بتغيير أماكن بعض الأسواق التقليدية وتعويضها بمقاهي وساحات ومتنزّهات وغير ذلك؛ ولعلّه كان يهدف من وراء ذلك تحطيم مقوّمات الصناعات التقليدية.

- محاولة تشتيت المجتمع وتفكيك وحدته لطمس هويته وانتمائه، ومن ثمّ تجريده من كلّ ما له علاقة بتراثه الثقافي والحضاري والتاريخي.

- تحديث وسائل الإنتاج وخلق طرق وأساليب جديدة في التصنيع كاستعمال الآلات الميكانيكة والمواد الاصطناعية المختلفة كالبلاستيك والألومينوم والجلود المصنّعة.

- بناء المعامل والمصانع الحديثة التي كانت تُشغّل الكثير من أبناء المدينة، وهذا ما أدّى إلى إبعادهم عن ممارسة إحدى الصناعات التقليدية.

كلّ هذه العوامل كان لها أثرها البارز في تقهقر الصناعة التقليدية بالمدينة منذ دخول ظهور بوادر الثورة الصناعية على جميع الأصعدة.

وبمرور السنين، طرأ تغيّر كبير على النمط المعيشي لعدد كبير من

الحرفيين – ومَن بينهم حرفيّو الصناعة الجلدية – الأمر الذي جعل الكثير منهم يهجرون صنائعهم إلى ميادين ومهن أخرى ذات دخل سريع ومَضمون.

ولقد أصبحت هذه الصناعات في أيّامنا ضحية للطفرة التنموية التي تمرّ بها البلاد؛ إذ لم يَبْقَ منها إلاّ نتف هنا وهناك نتذكرها فقط حينما تأتي مشاركة أصحابها في المهرجانات والمعارض الوطنية أو العالمية أو غيرها.

وبما أنّ من أهداف هذا البحث هو إيجاد الحلول والسبل الكفيلة للنهوض بالصناعة التقليدية واسترجاع مركزها الاجتماعي وقيمتها الاقتصادية في المجتمع، فقد تمكّنت من حصر بعض الإجراءات التي أراها مناسبة لدفع حركية هذا القطاع، ومن أهمّها :

- **التكوين** : ويتأتى ذلك بإدراج الصناعة التقليدية ضمن برامج المدارس الابتدائية والإكماليات والثانويات وإعطائها نفس الأهمية التي تحظى بها المواد الأخرى، إلى جانب توفير المكوّنين المتخصّصين والبرامج التعليمية المدروسة والوسائل اللازمة وخاصة الكتب.
- **التسويق** : ويكون ذلك بإيجاد طرق حديثة في ترويج المنتوج التقليدي كاستعمال الأنترنت مثلا، فهي طريقة حديثة تستعملها الكثير من البلدان المتقدّمة وحتى بلدان عربية كالمغرب الأقصى والأردن والسعودية. كما أنّ تجميع الحرفيين في فضاء إنتاجي موحّد داخل المدينة، فيكونون على اتّصال

مباشر بالمستهلك، ومن ثمّ تتحرّك مبيعاتهم.

- **السياحة** : أظنّ بأنّه لو كانت السياحة بخير ببلادنا لمَا وصلت إليه الصناعة التقليدية إلى ما هي عليه اليوم؛ فمن المعلوم بأنّ السياحة تكملة لقطاع الصناعة التقليدية وإلاّ كيف نفسّر ازدهارها في بلدان مجاورة للجزائر. فلا يخفى على أحد منّا أنّ السياحة في المغرب وتونس مثلا تجذب سنويا الملايين من السيّاح وخاصة الأجانب المولوعون بالمصنوعات التقليدية والتحف الفنية التي تنتجها أيادي الحرفيين، فهم يساهمون بشكل مباشر في تطوّير هذا القطاع.

وإنّني أرى أنّه إذا استطاعت الجهات الرسمية الساهرة على الصناعة التقليدية في بلادنا من التحكّم في هذه الأمور الثلاثة ومتابعتها لسنوات مستمرّة لتمكّنت من إعطاء دفعة جديدة لهذا القطاع.

وفي الأخير، تجدر الإشارة إلى أنّ التمسّك بالتراث – والصناعات التقليدية على وجه الخصوص – يؤكّد إلى حدّ كبير مفهوم الهويّة الحضارية والثقافية لدى كلّ أمّة في عصرنا الراهن، وهو بهذه الصفة يحمل شرعيته الإنسانية والفكرية والحسية وآفاق الإبداع الثقافي في المجتمع كونه إرثا مرئيا ومُعاشا يحيط بكلّ جوانب حياتنا وذاكرتنا وروحنا.

ولهذا، فمن الواجب علينا الآن أن ننبأ الأجيال الحاضرة والقادمة بمكانة التراث الحضاري لبلادنا وما خلفه لنا الأجداد من تجارب فنية كان لها الأثر الكبير في تطوّر شتّى مجالات الحياة ومَن بينها الصناعة التقليدية، والتي يتمكّن الجيل الجديد من خلالها أن يتنبّأ بأهميتها في المستقبل عن طريق دراستها والبحث فيها، فيتشرّب منها مختلف القيم الفنية. ويمكن اعتبار دراستها بمثابة اكتساب خبرات جديدة للأجيال القادمة تُعينهم على ابتكار أساليب جديدة ومَواصلة ما قام به آباؤنا وأجدادنا من إبداعات وابتكارات.

ولابدّ من التأكيد أيضا على أنّ الحرفي والمجتمع تقوم بينهما صلة إيجابية حينما يكون كلّ منهما على نفس الطريق : المنتج والمتذوّق (المستهلك). وعندما تنمو هذه العلاقة وتسير طرديا تساعد على إعطاء الصناعة التقليدية قوّتها في الاستمرار والتبلور والتأكيد، وهذه قضية تحتاج التركيز على الحرفي، وعلى الوسائل التي يتكوّن بها مثلما تحتاج إلى التركيز على المجتمع ذاته الذي هو المستهلك الأوّل.

ومهْما بلغ الإنسان من درجات التطوّر، فإنّه يبقى دوما يستمدّ قوّته من ثقافته وتاريخه، فيحاول الحفاظ عليه والاطّلاع على تفاصيله، ويحيي ثقافته ويعطيها الأهمية اللازمة لاعتقاده فيها وفي ضرورة وجودها.

المصادر
والمراجع

المصادر والمراجع العربية :

1- آراء وأفكار جديدة في الفن وتأصيل الهوية : محمد حسين جودي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1420هـ - 1999.

2- ابتكارات العرب في الفنون وأثرها في الفن الأوروبي في القرون الوسطى : محمد حسين جودي.

3- أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره: عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ - 1974م.

3- إثنولوجية الفنون التقليدية : إبراهيم الحيدري، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية اللاذقية، ط1، 1984.

4- الأواني الفخارية الإسلامية : محمد الطيب عقاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.

5- باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان : شاوش محمد بن رمضان

6- التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى الثامن من الهجرة : نجاة باشا، المنشورات الجامعية، تونس، 1976.

7- تاريخ الجزائر الثقافي : أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1998، ط1، ج8.

8- تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك بن محمد الهلالي الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ج3، د.ت.

9- التسويق السياحي – مدخل سلوكي – : د. محمد عبيدات، دار وائل للنشر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط1، 2000م.

10- التسويق الصناعي – مدخل استراتيجي- : د. أحمد شاكر العسكري، دار وائل للنشر للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط1، 2000م.

11- تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر : محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

12- تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر : ك. إبراهيمي، ترجمة محمد البشير شنيتي و رشيد بورويبة، الشركة الوطنية للتوزيع، 1982.

13- الجديد في الفن والتربية الفنية : محمد حسين جودي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1416هـ - 1996م.

14- جغرافية الجزائر : عبد القادر حليمي، مطبعة الإنشاء، دمشق، ط2، 1967.

15- دباغة الجلود و صناعة المواد المتعلقة بها : ترجمة وإعداد جعفر طاهر الهاشمي، دار الصفدي، 1998.

16- الرسم والأشغال اليدوية : محمد حسين جودي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمّان، ط2، 1419 هـ - 1999م.

17- الصناعات التقليدية الجزائرية : وزارة السياحة والصناعات التقليدية، مديرية الصناعات التقليدية، المؤسسة الوطنية للاتّصال والنشر والإشهار، الجزائر، أفريل 1998.

18- الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي : واضح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1402هـ - 1981م.

19- فنون و أشغال المعادن : محمد حسين جودي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 1416هـ - 1996م.

20- الفنون الزخرفية : محي الدين طالو، دار دمشق للطباعة والنشر، د.ط، 1994.

21- مجمع النصوص التشريعية والتنظيمية التي تحكم قطاع الصناعات التقليدية: مديرية الصناعات التقليدية، الفصل الثالث، الفرع الأول، فيفري 1999.

22- المجوهرات والحلي في الجزائر : بن ونيش فريدة، "سلسلة الفن والثقافة"، وزارة الثقافة والإعلام، طبع ورشات الفنون المطبعية التأميرا، - مدريد، إسبانيا، 1976.

23- المقدّمة : عبد الرحمان بن خلدون، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ط3، مجلد1، 1967.

24- نشأة الزخرفة وقيمتها ومجالاتها : فوزي سالم عفيفي، مراجعة الدكتور مصطفى عبد الرحيم، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1418هـ/1997.

25- وصف إفريقيا : الحسن بن محمد الوزان الإفريقي - ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.

المراجع الأجنبية :

1- La Composition décorative : Henri MAYEUX; A. Quantin Editeur ; 1884.

2- Elément sur la tradition orale : Youcef Nassib, Société Nationale d'Edition et de diffusion, Alger, 2 Ed., 1982.

3- Internet : Plusieurs sites ayant une relation direct ou indirect avec le sujet.

4- Monographie de la wilaya TLEMCEN : Wilaya de Tlemcen ; Service de l'Animation et de la Planification Economique ; Mai 1980 ; P. 265.

5- Monographie de la wilaya TLEMCEN : Wilaya de Tlemcen; Direction de la Planification et de l'Aménaement du Territoire; Juin 2001; P. 130.

6- Les Tanneurs de MARRAKECH : D. JEMMA, Mémoires du C.R.A.P.E XIX; Imp. ZABAN, Alger ; P. 55.

7- Tlemcen, Ancienne capitale du royaume de ce nom (souvenirs d'un voyage) : L'ABBE Barges, Paris, 18

8- Tlemcen au passé rapproché 1937-1962 : Editions Jacques GANDINI, Avril 1997.

9- Tlemcen au passé retrouvé : Louis ABADI, Jacques GANDINI, 1994.

10- Tlemcen et sa région - Syndicat d'initiative et du tourisme-Tlemcen,

11- Tlemcen et ses environs : Alfred Bel, Toulouse (SD)

12- Tlemcen : Georges Marçais, Librairie Renouard, H. laureus, Editeur, 1950.

13- Le Travail de la laine à Tlemcen : Alfred Bel, Alger, 1913.

الرسائل الجامعية :

1- الحلي التقليدية لطوارق الهقار- دراسة فنية : بن عبد الله نورالدين، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2001/2000.

2- الصناعة التقليدية بنطقة تيديكلت – صناعة الفخار والجلود نموذجا – دراسة ميدانية فنية إثنوغرافية: بوسليم صالح، رسالة ماجستير (لم تناقش)، قسم الثقافة الشعبية، تلمسان، 2001.

3- صناعة المضفرات والمنسوجات الحلفاوية بالمنقطة السهبية من دائرة سبدو بولاية تلمسان : محمد تروزين، المعهد الوطني العالي للثقافة الشعبية، تلمسان، 1993.

4- التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية : نقادي سيدي محمد، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، تلمسان، 1991.

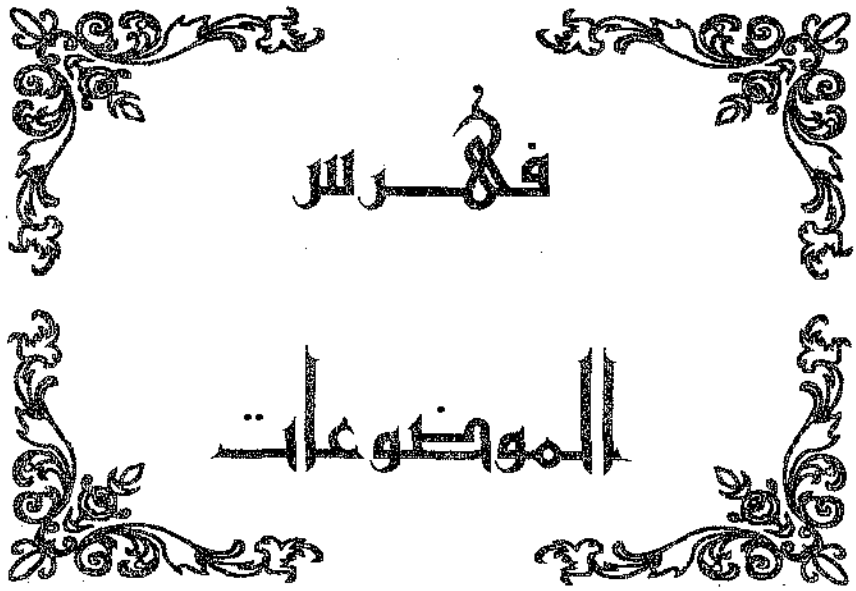
فهرس
الموضوعات

فهرس الموضوعات

إهداء	
المقدّمة	1
تمهيد : الصناعة التقليدية – نظرة عامة –	15
الفصل الأوّل : صناعة الجلود في تلمسان بين الصناعات الأخرى	48
1– تمهيد	49
2– الإطار الرسمي للصناعات التقليدية في تلمسان	52
3– أهمّ الصناعات التقليدية في تلمسان	59
الفصل الثاني : صناعة الجلود	76
– تمهيد	77
1– مـــادة الجـلد	78
2– دبـــاغـة الجـلـد	82
3– صبـــاغة الجـــلد	99
الفصل الثالث : الصناعة الجلدية	102
– تمهيد	103
1– أهمّ المنتوجات الجلدية القديمة	105
2– عـــوامل ازدهار الصناعة الجلدية	121
3– أسبـاب ركـــود الصناعة الجلدية	123
الفصل الرابع : تفعيل الصناعة الجلدية	131
– تمهيد	132
1– عصرنة المنتوج الجلدي	133
2– التكفّل الحقيقي بقطاع الصناعات التقليدية	143
3– الصناعة الجلدية ودورها في التنمية الاقتصادية	153
– الخاتمـة	155
– المصادر والمراجع	152
– فهرس الموضوعات	162